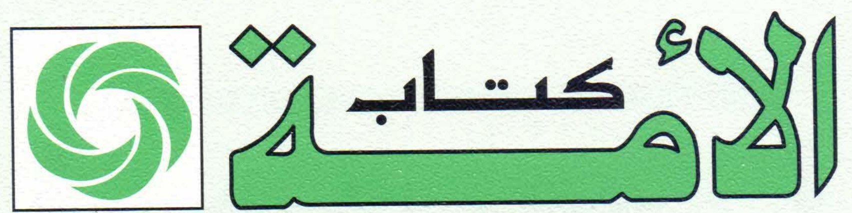
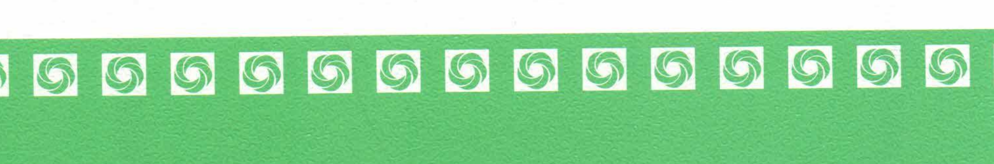


سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

العدد: ١٤٨ ربيع الأول ١٤٣٣هـ السنة الثانية والثلاثون

الأخلاق والسياسة

قراءة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه



أ.د. موفق سالم نوري

موفق سالم نوري الجوادي

* من مواليد العراق.

* حصل على درجة الدكتوراه في التاريخ (١٩٩٧م).

* يعمل حالياً أستاذاً للتاريخ الإسلامي، في جامعة الموصل.

* له عدد من الكتب المنشورة منها:

- العلاقات العباسية البيزنطية في العصر العباسي الأول.

- العامة والسلطة في بغداد في العصر العباسي الأول.

- الأمين الخليفة المفترى عليه.

- مدخل إلى الثقافة الإسلامية.

- أخلاقيات المهنة في الحضارة الإسلامية.

- فقه السيرة النبوية.

- نهج الحكمة نصوص في الحكمة الإسلامية.

- الإمام سفيان الثوري/ دراسة تاريخية.



سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

ص.ب: ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. هو محاولة لتقديم أحد نماذج الاتباع، سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، حيث التقت العبقرية بقيم الوحي وتربية النبوة؛ لقد كانت خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ ولا تزال أنموذجاً لحل المعادلة الصعبة بين الأخلاق والسياسة.

والكتاب يقدم قراءات من مواقع متعددة لمنهج الخلافة الراشدة في سيرة سيدنا عمر ابن الخطاب ﷺ يمكن أن تُشكل نوافذ للميراث العظيم والغني، الذي يرتكز إليه المسلم في إعادة البناء والمقاربة مع الحكم الراشد بعد فشل الشعارات والادعاءات والاتجاهات والأنظمة السياسية المجافية للإسلام والمعادية لقيمه على الأرض العربية وفي المجال الإنساني، وتلك القراءات لا تغني عن دراسة تحليلية شاملة لمسيرة هذا الخليفة الراشد، من خلال معطيات الواقع، ومحاولة المقاربة وتجسير الفجوة بين المسلمين وميراثهم الحضاري والسياسي، الذي لا يعني اختزاله في الوصول إلى الحكم.

إن الأمة التي تمتلك مثل هذه التجربة التاريخية الحضارية وهذا الأنموذج المتألق، الذي جمع بين القيم الخلقية الخيِّرة وانطلق منها، فكانت الإدارة الفذة، والسياسة الحكيمة المحكومة بالحق والعدل، جديرة ومؤهلة لاستعادة دورها في الشهود الحضاري.

ولا أزال أذكر بهذه المناسبة قولة الشاعر الكبير نزار قباني الذي لخص بقولته في مقابلة مع أحد الإعلاميين، الحال التي عليها العالم اليوم، وتطلعه إلى الحكم الراشد، عندما سأله الإعلامي: إذا طُلب إليك أن تختار شخصاً من التاريخ لتخاطبه، من تختار؟ وماذا تقول له؟ فقال فوراً: اختار عمر بن الخطاب ﷺ.. وأقول له: «عد إلينا، فقد اشتقنا إليك».

ويبقى المطلوب كيف يعود إلينا هذا الأنموذج لإشاعة العدل، والخلوص من الاستبداد السياسى، وإهدار كرامة الإنسان وانتهاك حقوقه؟

موقعنا على الإنترنت : www.sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني : E.Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

الأخلاق والسياسة

قراءة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الأستاذ الدكتور موفق سالم نوري

الطبعة الأولى

ربيع الأول ١٤٣٣هـ

كانون الثاني (يناير) – شباط (فبراير) ٢٠١٢م

موفق سالم نوري

الأخلاق والسياسية.. قراءة في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٢م.

١٥٦ص، ٢٠سم - (كتاب الأمة، ١٤٨)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٣٩ / ٢٠١١

الرقم الدولي (ردمك): ٦ - ٢ - ٧٧٩ - ٩٩٩٢١

أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa



القطرية للطباعة

تليفون: ٢٨/٢٧/٤٤٥٠٠٠٢٧ ٩٧٤+ - فاكس: ٤٤٥٠٠٠٢٩ ٩٧٤+

ص.ب: ٣٥٠٤ الدوحة - قطر

يقول تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ
خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۞ ٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ
عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾

(البينة: ٧-٨)

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، والصلاة والسلام على إمام المتقين، المبعوث رحمة للعالمين..

الحمد لله، الذي امتنّ علينا بنعمة الإيمان وأورثنا النبوة والكتاب، فقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (الحجرات:٧)، ونسأله تعالى أن يجعلنا من الراشدين؛ وقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر:٣٢)، وبذلك كانت وراثة النبوة ولادة للإنسان الجديد، الذي يمتلك بهذه الوراثة عمقاً تاريخياً، وحضارياً، ورصيداً، ورؤية واضحة لمسيرة الحياة، منذ بدء الخلق وحتى ينشئ الله النشأة الآخرة؛ كما يمتلك أنموذج الاقتداء المسدد بالوحي والمؤيد به من حياة النبي، عليه الصلاة والسلام، وسيرته؛ كما يمتلك المثل الكامل للاتباع بإحسان من

حياة الصحابة، الذين رُبّوا على عين النبوة، فكانوا خير الخلف والأجيال وخير القرون، بشهادة القرآن وتزكية النبوة: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الذينَ يَلُونَهم، ثُمَّ الذين يَلُونَهم**» (أخرجه البُخاري)، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تَسُبُّوا أصحَابِي، فلو أنَّ أَحَدَكُم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصِيفَه**» (أخرجه البخاري).

وبعد:

فهذا كتاب الثامن والأربعون بعد المائة: «الأخلاق والسياسة.. قراءة في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ» للأستاذ الدكتور موفق سالم نوري، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، في محاولاتها الدائبة لاسترداد الفاعلية وإعادة بناء المسلم المعاصر، وتحقيق ذاته، وإيقاظ وعيه برسالته العالمية، واستيعاب وراثة النبوة، وإدراك أبعاد تجربته الحضارية التاريخية، واستصحاب مرجعيته في التعامل مع الحاضر والتخطيط للمستقبل، في ضوء الإمكانات المتاحة والاستطاعات المتوفرة والظروف المحيطة، واستشعار مسؤوليته الإنسانية، وامتلاكه المؤهلات من التخصصات المطلوبة، وارتقائه الموقع الوسط للاضطلاع بالشهود الحضاري وإقامة الكتاب والميزان التزاماً بالعدل وتحقيقاً له في الأرض، استجابة للتكليف الشرعي، الذي يقتضيه قوله تعالى في جعلنا أمة العدل ونشره وتحقيقه في حياة الناس: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣)، ذلك أن الأمر المطروح دائماً

أو السؤال المطروح والملف المفتوح باستمرار: كيف نتأهل بقيم الإسلام لنكون شهداء على الناس في كل زمان ومكان؟ وما هي التخصصات المطلوبة، وكيف نتحقق بها، ونسعى لتوفيرها في حياتنا، حتى نكون في مستوى إسلامنا وعصرنا؟

كيف نتعامل مع أنموذج الاقتداء ورموز الاتباع بإحسان، وكيف نقتبس من تجربتنا الحضارية التاريخية، بل وتاريخ النبوة الطويل، بكل مكوناتها؟

وقد لا يتسع المجال هنا للحديث عن طبيعة الأنموذج ومكوناته وأثره التربوي ودوره التطبيقي في الحياة، سواء في ذلك سيرة الرسول القدوة ﷺ المسدد بالوحي والمؤيد به، أو امتداده في الخلافة الراشدة وجيل الصحابة، الذي تربى على عين النبوة وتسديدها وتدريبها وشهدت له بأهلية الاتباع: «...**فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**» (أخرجه ابن ماجه)، ذلك أن الإيمان بمدى سلامة الأنموذج المحتذى وصلاحيته تعتبر الدليل الأهم في إعادة البناء الحضاري وإخراج الأمة المسلمة من جديد، إضافة إلى أهمية وجود الأنموذج الذي يجسد القيم في حياة البشر في كل شؤونهم وجميع أحوالهم، في قوتهم وضعفهم، في نصرهم وهزيمتهم، في ارتقائهم وارتكاسهم، في صحتهم ومرضهم، في فرحهم وحزنهم....إلخ، وأهميته أيضاً من حيث هو دليل الحياة ابتداءً وتجنب عثراتها بكل ظروفها وجوانبها.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن وجود الأنموذج المجسد يدلل بشكل يقيني على أن العقيدة والقيم الإسلامية واقعية وعملية، لا نظرية ومنظومة أحلام وخيالات وفلسفات ومعارف باردة لا نصيب لها من حياة الناس.

ولعلنا نقول هنا: إن الرسول ﷺ الذي اصطفاه الله للرسالة الخاتمة، المثل الأعلى والأنموذج الأمثل، هو بشر من البشر، يتصف بصفات البشر، ويجري عليه ما يجري على البشر من عوارض طبيعية، وأن حدود العصمة، فيما أجمع عليه العلماء تقريباً، إنما هي فيما يختص بتبليغ الشريعة وقيم الدين، وأن الفرق بينه وبين البشر أنه يُوحى إليه ويسدد بالوحي، فإن جاء اجتهاده البشري صواباً أقره الوحي، وإن جاء خطأً صوبه الوحي، لذلك فكل ما جاء عنه صحيحاً إذا توافرت له شروط النقل المعتمدة.

ولعلنا نقول: إن بشرية الرسول ﷺ من لوازم الاقتداء، ذلك أن الرسول ﷺ لو لم يكن بشراً، أو كان ملاكاً لاستحال عقلاً وشرعاً أن يكون محلاً لاقتداء البشر، فكيف يكون قدوة للبشر من لا يحس إحساس البشر ولا يطيق طاقة البشر؟

لذلك كانت تلفت نظري من وقت مبكر قولة الكافرين معترضين، التي قصها القرآن: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:٧)، وكنتُ أقول لطلابي: ليست المشكلة في بشرية الرسول ﷺ وإنما المشكلة كل المشكلة لو لم يكن الرسول بشراً (!) إذ كيف يمكن أن يشكل قدوة وأنموذجاً للبشر من لا يتصف بصفات البشر؟!

لذلك نقول: أيُّ أنموذج أو محل اقتداء، فيما اخترعه الناس بكل مذاهبهم، يدعو للاطمئنان والارتياح والأمان أكثر من الرسول القدوة بما توافر له من

التأهيل والتربية والحفظ والوحي المعلم من خارج البشر، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب:٢١).

ولا نريد هنا التوقف عند أبعاد الاقتداء، وكيف أنها انكمشت عند بعض المسلمين واقتصرت على الطعام والشراب والنكاح واللباس وغابت عن مجالات الحياة الأخرى، التي قد تكون الأهم والأكثر لزوماً، ولا عن منهجية الاقتداء ولا عن العبث بوسائله، ولا عن عدم الفقه بالموقع المناسب للاقتداء من مسيرة السيرة، وما يقابله من واقعنا، الأمر الذي حاصر الأنموذج، إلى حد بعيد، وشوّه عطاءه وعطل دوره، وحال دون امتداده والإفادة منه بالإجابة عن أحوالنا وحالاتنا، حيث نرى حالات من فوضى الاجتهاد في الاقتداء لافتة للنظر، فقد نقتدي ونحن في حالة الهزيمة بمواقع النصر في السيرة... والقائمة تطول (!)

وهكذا تدور علينا الدوائر ونسيء إلى الأنموذج ونشوهه، بسبب غياب منهجية الاقتداء والقدرة على القراءة القاصدة للسيرة وواقع المجتمع في كل زمان ومكان، ووضع الواقع بكل ظروفه ومكوناته بالموقع الذي يناسبه من مسيرة السيرة الطويلة أو مسيرة الخلافة الراشدة محل الاتباع بإحسان.

وليس ذلك فقط، وإنما الرؤية الناقصة والعليلة لمسيرة السيرة، وقراءتها بأبجدية خاطئة، وعدم إبصار عطاء السيرة التي جسدت القيم في حياة الناس إلاّ من جانب واحد أو من بُعد واحد.

لذلك نجد أن هذه القراءة للسيرة بكل عطائها لم تخرج عن مجموعة غزوات هنا وهناك، وحتى هذه العسكرة في قراءة السيرة لم تبصر عطاء

الغزوات وأبعادها الإنسانية، حيث لم يُر منها إلا جانب المواجهة، ولعل السبب في ذلك حالة الضعف والهوان والخزي، التي يعيشها المسلمون، والقهر والاستبداد السياسي الذي يُمارس عليهم فيجعلهم لا يرون التغيير وإصلاح الحال إلاّ في طريق القوة وامتشاق السلاح.

وليس أقل من ذلك خطورة وشأناً الاقتصار على السعي لإبراز الصورة الإيجابية المضيئة للسيرة وكأنها حصلت في مجتمع ملائكة مبرمجين على الصواب، ولم تكن أنموذجاً لمجتمع بشري له مشكلاته، له نجاحاته وإخفاقاته، له صوابه وخطأه(!) وأن حاجته إلى أنموذج ودليل للتعامل مع الخطأ كحاجته إلى دليل وأنموذج للتعامل مع الصواب، بل لعل الحاجة للتعامل مع الإخفاق وكيفية تجاوزه أشد وأكثر إلحاحاً من الحاجة إلى التعامل مع الصواب وامتداده.

ولما كان المجتمع البشري له خطأه وصوابه، وأن كل بني آدم خطاء، وأن خير الخطائين التوابون، كان إبراز الجانب السلبي للمجتمع وكيف عالجته السيرة وتقديم الأنموذج للاقتداء من أهم الأمور وأكثرها ضرورة في إعادة بناء المجتمعات والحضارات.

لذلك نقول: إن غياب منهجية الاقتداء، بكل أبعادها، ساهمت بشكل سلبي في عزل الأنموذج عن حياتنا بأقدار متفاوتة وأبقت الانتصار له عاطفياً ونشوة تاريخية، وعلاجاً لمركب النقص، قد لا يغير من الحال شيئاً، وفي ذلك إساءة للأنموذج نفسه، وتقليل من شأنه عملياً ودوره في إعادة صياغة الحياة.

والذي نحب أن نعاود تأكيده أن الرسول ﷺ دون سواه هو محل الاقتداء ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وأن كل إنسان، مهما بلغ، يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم.

أما البعد الآخر للأنموذج المطلوب اتباعه بإحسان فهو عالم الأصحاب أو حياة الصحابة، رضوان الله عليهم.

والحقيقة أن هذا الجيل، أو هذا القرن وهؤلاء الأصحاب، تربوا على عين النبوة، وبحضانة الوحي في التسديد والتأييد والتدريب، فكانوا محل الاتباع بإحسان بعد وفاة الرسول ﷺ حيث توقف الوحي من السماء، وإن امتد قرآناً وسنة خالدين على طول الزمان، وكانا مصدر إلهام ودلالة للأصحاب، رضي الله عنهم.

فجيل الأصحاب، رضي الله عنهم، تربى على عين النبوة -كما أسلفنا- وبرعاية النبوة، وتربية النبوة، وتدريب النبوة، الأمر الذي أهّله ليكون محل الاتباع المشروط بإحسان.

ولئن كانت فترة السيرة فترة استمرار تأييد الوحي وتسديده، ووجود النبوة، التي تنزل قيم الوحي على الواقع، فإن فترة الخلافة الراشدة هي فترة البشرية الكاملة بعد انقطاع وحي السماء بوفاته صلى الله عليه وسلم.

وقد يكون من المفيد أن نأتي على خصائص وصفات هذا الجيل، وتزكية القرآن له، وشهادة الرسول ﷺ له أيضاً، لما لذلك من أهمية في البناء الفكري، وفي مقدمته الخلفاء الراشدين، القادة العظام والنماذج المتفردة، ولندرك موقع

هذا الجيل الرباني القدوة، الذي تربَّى على عين النبوة وتسديد الوحي، فكانت أُمّته خيرَ أمة أُخرِجَتْ للناس، وكان الجيل المعيار، والجيل القدوة، وقد شهد له الرسول ﷺ بأنه خير القرون، لِمَا تَمتَّعَ به من المجاهدة والجهاد، والخصائص والصفات، التي تتمثل قيم الإسلام، وتثير الاقتداء، قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٨٨-٨٩)؛ وقال عز وجل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة:١٠٠).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١١٧).

وهذا غيض من فيض، ويكفي أن نقول: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾.. ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ (البينة:٨).

ومن هؤلاء الأصحاب الخليفة الراشد سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ الذي يعتبر من المعالم الرئيسة المطلوب استدعاؤها على طريق إعادة البناء الثقافي وتحقيق الوعي الحضاري، ومعاودة إخراج الأمة المسلمة، واسترداد دورها

العالمي، وإحياء التزامها ووعيها برسالتها الإنسانية، التي كانت الغاية منها إلحاق الرحمة بالعالمين، استجابة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، ذلك أن استرداد دور الأمة العالمي، وإحياء التزامها برسالتها، وإعادة بناء خيريتها، وتحقيق إخراجها الجديد للناس، لا يتأتى إلا بتلمس ظروف وشروط ميلادها الأول، أو بتعبير أدق: إخراجها الأول، وامتلاك القدرة على التحقق بالمرجعية وخصائص خير القرون، وعلى الأخص مرحلة السيرة وجيل الصحابة، الذي شهد له الرسول ﷺ بالخيرية -كما أسلفنا- ومن ثم التوغل في التاريخ العام للأمم، والاهتداء خاصة بالنماذج التي عرض لها القرآن الكريم فيما اصطلح عليه بالقصص القرآني، والمسيرة التاريخية للأمة المسلمة، والإصابات التي لحقت بها حتى صارت إلى ما هي عليه اليوم، وتحديد مواطن الخلل وأسبابه، في ضوء السنن الإلهية المطردة، وأقدار الله تعالى في السقوط والنهوض.

ولعل الفترة أو المرحلة الأحق بالبحث والدراسة والتحليل باستمرار، هي مرحلة السيرة النبوية والخلافة الراشدة، وحقبة خير القرون؛ لأنها تُصوِّب المسار، وتمثل المعيار والمرجعية، وتشكل نقطة الانطلاق، وتحقق الارتكاز الحضاري، وتوضح الملامح والقسمات المميزة للشخصية الحضارية الإسلامية التاريخية، كما تمثل البعد الإنساني والعالمي للرسالة الإسلامية، والفترة الأمينة والمأمونة والسابقة لتحويل المبادئ إلى برامج، والقيم إلى خطط، والفكر إلى فعل، والنظرية إلى تطبيق، وإدراك مقاصد الدين، والانطلاق في الاجتهاد،

والحوار، والمشاورة، والمفاكرة، والمناظرة، إلى الآفاق والأبعاد المستقبلية، التي تتلاءم مع خلود الإسلام ومرونته، وقدرته على العطاء في كل زمان ومكان.. فتجربة هذا الجيل الرباني، واجتهادهم، وفعلهم، وتنزيلهم للقيم على الواقع، جزء من خلود هذا الدين، ووسائل إيضاح معينة وخالدة لكيفية التعامل مع النصوص، في الكتاب والسنة، في الظروف والأحوال المختلفة.

وهنا قضية لابد من التوقف عندها ولو قليلاً، وهي أن للصحابة الكرام، رضي الله عنهم، موقعًا متميزًا في مسيرة الإنسانية التاريخية، بل في مسيرة النبوة وصَحْبِها ورَكْبِها الممتد، فشأنُهم ليسَ كَشَأنِ غيرِهم، وعمَلُهُم لَمْ يُدَانِهِ أحدٌ ممنْ سَبَقَهُمْ، وَلَنْ يَلْحَقَ بِهِ أَحَدٌ ممنْ جَاءَ بَعْدَهُم.

لقد كانوا معجزة خالدة من معجزات الإسلام، ومعيارًا لكل جيل، في كل زمان ومكان.

ولما كان لجيل الصحابة هذه المكانة الفريدة من الخيرية، وهذا التميز في تاريخ البشرية بشكل عام، وفي تاريخ النبوة بشكل خاص، وكانوا الجيل الذي تجسَّدَت الرسالة في حياتهم، وكانوا الجيل الذي سوف يبقى يمثل أنموذج التأسي، وأنهم الجيل الذي رضي الله عنهم بنص القرآن: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾، ووصلوا إلى مرحلة من الرِّضى والالتزام والانضباط، والإذعان والاطمئنان إلى ما هم عليه من الخير، فوصفهم القرآن بقوله: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، كان لا بد لهذا الجيل أن يشكل المنجم الثري الخالد للعطاء.

لقد وصفَ الرسولُ ﷺ موقعهم بالنسبة للأمة، بقوله: «**النجومُ أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبتِ النجومُ أتى السماءَ ما تُوعد، وأنا أمنةٌ لأصحابي،**

فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمتي فإذا ذهبَ أصحابي أتى أمتي ما يُوعدون» (أخرجه مسلم).

وأعتقد أن الدلالة واضحة جدًا في وصف الرسول ﷺ لجيل الصحابة: فإن ذهابَ النجوم يعني اختلال نظام الكون، وتَوَقُّف الحياة الدنيا.. وإذا غابت سنة الرسول ﷺ، ومعرفة الوحي، انتشرت البدعةُ، واختلتْ مسيرةُ الحياة، وعَمَّتِ الفوضى، وضلَّ الرأي.. وإذا غُيِّبَ جيلُ الصحابةِ، افْتَقَدَتِ الأمةُ المرجعية، واهتزَ الارتكازُ الحضاري، واعتلَّ ميزانُ التطبيق، ودخلتِ الأمةُ في التنازعِ والحيرةِ، والارتباك والفشل، والتبعثر، وعواصف الأهواء.

ولقد أجمع أهل السنة والجماعة على عدالة الصحابة في الرواية، ونقل الحديث.. والعدالة لا تعني العصمة من الخطأ بحال من الأحوال، قال الخطيب في «الكفاية»: «والأخبار في هذا المعنى تتسع، وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحدٌ إلى تعديل أحد من الخلق.. فهم على هذه الصفة إلى أن يثبت على أحد ارتكاب ما لا يحتمل إلا قصد المعصية، والخروج من باب التأويل، فيحكم بسقوط عدالته، وقد برّأهم الله من ذلك، ورفع أقدارهم عنده.

على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله شيء مما ذكرنا، لأوجبت الحالُ التي كانوا عليها، من الهجرة والجهاد، والنُّصرة، وبذل المُهَج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطع على

عدالتهم، والاعتقاد لنـــزاهتهم، وأنهم أفضل من المعدَّلين والمـــزكِّين، الـــذين يجيئون من بعدهم إلى أبد الآبدين» (الكفاية، ص٩٣-٩٦).

من هنا ندرك أبعاد الجريمة الكبرى لمن كان شأنهم في تاريخ الأمة هـــدم الجيل الأنموذج وحرمان الأمة من دليل الاتباع، والخوض في عدالة الصحابة بعد هذه الشهادات من القرآن والسنة، ومحاولة اختزال هذا الجيل، المـــشهود لـــه، بشخص أو فرد ادعيت له العصمة عن الخطأ، مهما كان علمه ومكانته.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «مَنْ كان منكم متأسيًا فليتأس بأصـــحاب محمدﷺ، فإنَّهم كانوا أبرَّ هذه الأمةِ قلوبًا، وأعْمَقَهَا علمًـــا، وأقلَّهَـــا تَكَلُّفًـــا، وأقْوَمَها هَدْيًا، وأَحْسَنَها حالاً.. قومًا اختارهم الله لصُحبة نبيه، وإقامة دينـــه، فاعرفوا لهم فَضْلَهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهُدى المـــستقيم» (جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر).

ويقول ابن تيمية، معقبًا على قولـــه تعـــالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:١٨): «والرِّضـــا من الله صفـــة قديمـــة، فلا يرضى إلا عن عبدٍ علمَ أنه يوافيه على موجبات الرضا -ومن رَضِيَ الله عنه لم يسخطْ عليه أبدًا- فكل من أخبر اللهُ عنه أنه رضي عنه فإنه من أهل الجنـــة، وإن كان رضاه عنه بعد إيمانه، وعمله الصالح، فإنه يذكر ذلك في معرض الثناء عليه والمدح له، فلو علم أنه يتعقب ذلك بما يسخط الرب لم يكن مـــن أهـــل ذلك» (الصارم المسلول، طبعة دار الكتب العلمية، ص٥٧٢-٥٧٣).

ويقـــول ابن حزم، رحمـــه الله: «فمَن أخبرَنَا الله عز وجل أنه علم ما في قلوبهم، ورضي عنهم، وأنزل السكينة عليهم، فلا يحلُّ لأحدٍ التوقُّفُ في أمرهـم، أو الشك فيهم البتة» (الفصل في الملل والنِّحَل، ٤/١٤٨).

لذلك، ومن هنا، ندرك عِظَمَ المخاطرِ والآثارِ المترتبةِ على النيل من هـــذا الجيل، الذي يمثل قاعدة البناء، وأنموذج تنـــزيل الإسلام على الواقـــع، ومحـــل التأسي، والمرتكز الحضاري.

وليس ذلك بالنسبة لعصر، أو قـــوم، أو جيـــل، أو موضـــع، أو وضـــع اجتماعي، وإنما هم جيل التأسي الخالد، المجرد عن حدود الزمان والمكان، إنهم جيل التأسي العالمي والإنســـاني؛ لأنهم حَمَلَة رسالة عالمية إنـــسانية خالـــدة، ونماذج تطبيقها، وأوعية حَمْلِها ونَقْلِها، والقاعدة البشرية الأولى، التي قامـــت بها: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام:١٢٤).

والأمر الذي يتطلب كثير التأمل والتفكير في النظر وتقويم الاقتداء وتحقيق أدوات المقاربة مع هذا الأنموذج ووسائلها، حيث استوعبت حيـــاة الأنمـــوذج جميع جوانب الحياة وشكلت دليلاً لها، أن نطرح باســـتمرار السؤال التـــالي: لماذا كان هذا الجيل هو جيل الأنموذج ومحل الاتباع بإحسان؟ وبماذا تميز عـــن غيره من الخلق؟

ونحاول باستمرار استقراء الصفات والخصائص التي بها كان خير القـــرون ومحل الاقتباس والاقتداء، ومن ثم محاولة وضع الخطط والمناهج وأدلـــة العمـــل والوسائل المناسبة لتنزيل هذه الخصائص والصفات على إنـــساننا ومؤســـساتنا

التربوية والإعلامية والاجتماعية والسياسية في محاولة لإيجاد مقاربات مع هذا الجيل وتصويب المسالك والمسارات.

ومما لا شك فيه أن الأنموذج في طبيعته يبقى معياراً متفرداً لا يتكرر، ولا يمتد بكل خصائصه وأبعاده وصفاته؛ لأن ذلك من خصائص المعيارية، لذلك قد لا نستغرب عدم امتداد الجيل بكل مواصفاته، ونقع في إشكاليات سوء الفهم وسوء التقدير، فنقول: إن الأنموذج والمرحلة الذهبية في الحياة الإسلامية لم تمتد أكثر من كذا سنة ومن ثمّ بدأ التدهور(!) ولو أدركنا خصائص وصفات وطبيعة الأنموذج والمثل الأعلى لعرفنا استحالة التكرار وما يحتمل من خلل واهتزاز، ولعرفنا لماذا لم يمتد الرشد أو الخلافة الراشدة، وأن الحياة الإسلامية استمرت قرباً وبعداً من هذا الأنموذج؛ وتبقى المقاربة هي الطريق إلى الكمال والاكتمال.

ونقول: على الرغم من الفترات المتألقة والمضيئة في تاريخنا الحضاري الطويل يبقى للأنموذج تميزه وتفرده، ولا تخرج جميع المحاولات عن المقاربة مع هذا الأنموذج.

إن هدم الأنموذج في حياة الأمة يسلمها إلى فقدان البوصلة والمعيار والافتقار إلى المرجعية ونقطة الارتكاز الحضاري المأمونة، ودفعها إلى التيه وضياع الجهات وغياب المعايير الضابطة لمسيرة الحياة.

وهذا الكتاب هو محاولة لتقديم أحد نماذج الاتباع، سيدنا عمر ابن الخطاب ﷺ القوي الأمين، حيث التقت العبقرية بقيم الوحي وتربية النبوة، عبقرية الفقيه في الدراية وعبقرية القائد في الإدارة، الذي اجتمعت فيه القوة،

من حيث الخبرة ورجاحة الرأي وملكة الاجتهاد، مع عظيم الأمانة، التي هي ثمرة الإيمان؛ الإيمان الذي كان -فيما يروى عنه- يخيف الشيطان؛ لقد كانت خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ ولا تزال أنموذجاً لحل المعادلة الصعبة بين الأخلاق والسياسة.

إن ما يمتلك عمر ﷺ من الخصائص والمؤهلات رفعته إلى مقام استحقاق النبوة: فـ«لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب» (أخرجه الحاكم).

ولقد كانت قولة المؤرخين قولة تاريخية محقة عندما قالوا: «رحم الله عمر، إنه اتعب من جاء بعده».

والكتاب يقدم قراءات من مواقع متعددة ومتنوعة لمنهج الخلافة الراشدة في سيرة سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يمكن أن تُشكل نوافذ للميراث العظيم والغني، الذي يرتكز إليه المسلم في إعادة البناء والمقاربة مع الحكم الراشد بعد فشل الشعارات والادعاءات والاتجاهات والأنظمة السياسية المجافية للإسلام والمعادية لقيمه على الأرض العربية وفي المجال الإنساني، وتلك القراءات -في نظري- لا تغني عن دراسة تحليلية شاملة لمسيرة هذا الخليفة الراشد، من خلال معطيات الواقع، بكل مكوناته، ومحاولة المقاربة وتجسير الفجوة بين المسلمين وميراثهم الحضاري والسياسي، الذي لا يعني اختزاله في الوصول إلى الحكم، بمؤهل وبدون مؤهل، ذلك أن الوصول إلى الحكم يعتبر ثمرة لبناء حضاري وثقافي وأخلاقي متكامل، ذلك أن فاقد الشيء لا يعطيه.

إن الأمة التي تمتلك مثل هذه التجربة التاريخية الحضارية وهذا الأنموذج المتألق، الذي جمع بين القيم الخلقية الخيِّرة وانطلق منها، فكان الكتاب، وكان

الميزان، وكانت الإدارة الفذة، والسياسة الحكيمة المحكومة بـالحق والعـدل، جديرة ومؤهلة لاستعادة دورها في الشهود الحضاري.

فالأمة التي تمتلك في تاريخها من مثل هذا الأنموذج وهذا الرصيد لا تنطلق من فراغ، ولا يمكن لها أن تقبل بما سواه أو ما دونه مهما زُيّن لها.

ولا أزال أذكر بهذه المناسبة قولة الشاعر الكبير نزار قباني - غفر الله له- الذي لخص بقولته في مقابلة مع أحد الإعلاميين، الحال التي عليها العالم اليوم، وتطلعه إلى الحكم الراشد، عندما سأله الإعلامي: إذا طُلب إليـك أن تختـار شخصاً من التاريخ لتخـاطبه، من تختار؟ وماذا تقول له؟ فقال فوراً: اختـار عمر بن الخطاب ﷺ.. فقال الإعلامي: وماذا تقول له: قال الشاعر الكـبير: أقول له: «عد إلينا، فقد اشتقنا إليك».

ويبقى المطلوب كيف يعود إلينا هذا الأنموذج لإشاعة العدل، والخلـوص من الاستبداد السياسي، وإهدار كرامة الإنسان وانتهاك حقوقه؟

إن معاودة استدعاء الأنموذج الراشـدي يعتبر من أهم المعـالم لتـسديد طريق النهوض وإبصار شروطه ومقوماته، سعياً لمعاودة إخراج الأمة المـسلمة الوسط لتنطلق برسالتها الإنسانية فتكون شاهدة على الناس، وتلحق الرحمـة بالعالم المأزوم.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

المقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وعلى من تبعه واهتدى بهديه، واستن بسنته إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن اجتماع القول في الإسلام والسياسة والأخلاق وعمر بن الخطاب ﷺ، يجعل الكلام يذهب في سياقات معينة، ولعله يستدعي من التساؤلات ما هو جدير بالإجابة عنه:

- فهل يمكن الجمع والمزج بين الدين والسياسة؟
- وهل يمكن – حقيقة – الجمع بين الأخلاق والسياسة؟
- ثم هل بالإمكان استدعاء تجربة عمر ﷺ اليوم؟

إن البحث عن صلة ما بين الدين والسياسة، أو محاولة نفي هذه الصلة بشكل أو بآخر، شكلت إحدى أبرز المعضلات التي تتفاعل مع واقعنا اليوم، وحسم هذه المسألة – ذلك إن كان ممكناً حسمها في ظل المعطيات المحلية والعالمية – فإنه سيدفع بالأمور نحو أحد مسلكين يمكن لكل منهما أن يقرر مصير الأمة في مواجهة تحديات مصيرها الحضاري.

فالعلمانية تصارع، وبدعم واسع من قوى عالمية كبرى، نحو تأكيد الفصل بين الدين والسياسة بالاستعانة بشواهد، أو قراءات، أو تأويلات من هنا

وهناك، متجاهلين أن هذا الدين الذي جاء بنظام شامل للحياة، كيف لـه أن يتجاهل شأن السياسة !! وإذا كان بعضهم يبرع في إظهار تمسكه بالإسلام، لكن الإسلام المدني لا السياسي، لأنهم يرون ببساطة أن الإسلام السياسي لا وجود له، وبالتالي كيف لنا أن نتصور نبياً يوجه أتباعه ويضبط سلوكهم بمعايير دقيقة وتفصيلية تبدأ من أدق تفصيلات الحياة لتتشعب إلى كل زواياها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتعبدية إلى ما سوى ذلك، كيف يتسنى لهذا النبي أن يتجاهل شأن السياسة؟ بل قل: كيف يمكن أن نتصور إلهاً أحاط علمه كل شيء، لا يعنيه شأن السياسة؟ فهل إن الذي شرع أحكاماً وقواعد تعالج شؤون الحياة القائمة والقادمة، أعياه شأن السياسة؟ ألا يقف بنا مثل هذا التصور على شفير هاوية في التفكير؟

فإذا ما تم إقرار أن لا انفصال بين الدين والسياسة، وأنه لا تقاطع بينهما، فإن ذلك يجب أن يقودنا إلى الفهم الصحيح لهذه العلاقة. فالإقرار بالعلاقة والترابط بينهما، يجب أن يقوم على أساس إقرار علاقة فاعلة ومؤثرة، لا علاقة شكلية، يتحول فيها الدين إلى مطية يمتطيها السياسيون للوصول إلى غايات ومصالح، قد لا يكون لها في الدين أصل. وهذا هو عينه ما يعرف بتسييس الدين، حيث يتم استحضار الدين عند (الحاجة) و (يُنتقى) منه أيضاً بحسب الحاجة، فمثل هذا المنهج يشكل انحرافاً في فهم طبيعة الصلة بين الدين والسياسة. بل نجد بين الجادين مَن يرى أن الدين يدور مع المصلحة، وهذا شأن خطير؛ لأن المصلحة أمر نسبي، فإذا تبعها الدين أصبح هو الآخر نسبياً، لذا فإن المصلحة هي التي تتبع الدين وتدور معه حيث دار، فالمصلحة الحقيقية مصلحة

شرعية، مع قدر من المرونة (لا المناورة) تسمح بالتفاعل بين الواقع وفقهه والأحكام الشرعية.

ومن ناحية أخرى، فإن البحث في صلة الدين بالسياسة ينبغي أن لا ينصرف صوب الأشكال والمظاهر مع تجاهل المبادئ والقواعد التي توجه السياسة دينياً بما يجعلها أكثر فاعلية في خدمة الدين أولاً ومصالح الأمة ثانياً، وليكون الأشخاص أمناء على الصلة الصحيحة بين هذين الطرفين – أي الدين والسياسة – فإن لم يكونوا كذلك فإنهم في أحسن التأويلات سيسيؤون إلى كل من الدين والسياسة والأمة.

ولعل الواقع السياسي في جو مضطرب متصارع، يؤكد في كل لحظة أن لا صلة بين الأخلاق والسياسة، بل يبدو أن التنافر بينهما هو الأكثر رسوخاً في النفوس، وكأن السياسة رديف لكل ما هو متفلت من القواعد الأخلاقية، ولعل ما أسهم في صياغة مثل هذا التصور مؤثرات عديدة؛ ذلك لأن كثيراً من الدعوات الأخلاقية جاءت مثالية فوقية، من دون استناد إلى معطيات مادية تعزز قوة الأخلاق في الميدان العملي، وهكذا رُسِمت ملامح المدن الفاضلة في مخيلة أصحابها، ومن جانب آخر فإن المفكرين الداعين إلى الضد من ذلك تركوا بصمات فاعلة في رسم ملامح السياسة عملياً، وهذا ما نجحت الميكافيلية في تأكيده فعلاً.

لذا فإن البحث في صلة إيجابية فاعلة للأخلاق مع السياسة ينبغي أن ينطلق من ربط الأخلاق ببنيان اقتصادي واجتماعي عملي يمنح للأخلاق قوة الفعل والتأثير، كما ينبغي أن ترتبط منظومة المفاهيم الأخلاقية بمنظومة أكثر

شمولاً، وهي المفاهيم الدينية الشرعية، بما يضاعف من فاعلية تأثير الأخلاق في السياسة.

ولعل تجربة عمر ﷺ كانت فذة في توثيق الصلة بين عنصري الأخلاق والسياسة، حتى أسفرت التجربة عن سيادة الحق والعدالة بشكل قل نظيره خارج سياق النبوة، وقد يغرق بعضهم في تأكيد أن هذه التجربة كانت محض حالة (تاريخية) ارتبطت بزمان قد مرّ وانقضى لا يمكن استدعاؤه، وربما انطلق هؤلاء من تصور لشكل التجربة وليس من أسسها ومبادئها. فتجربة عمر ﷺ لم تكن سوى تفاعل حقيقي وجاد بين معطيات الإسلام الشرعية ومعطيات عمر الشخصية، ولا ريب في أنه كما تنجب الأمة قائداً، فبوسع القائد أن ينجب أمة، إذا ما توافرت العناصر الإيجابية الفاعلة في شخص من يتصدى لذلك.

إن أكثر ما يبهر في تجربة عمر ﷺ تلك الأمنية العزيزة التي نجح في جعلها حقيقة واقعة، ذلك التحالف المتين بين الحق والقوة، في سياق ندر أن تجد نظيره أيضاً خارج سياق النبوة، ولعل تلك أعظم قيمة أخلاقية شكلت النسيج الداخلي لتجربة عمر ﷺ في الإدارة والحكم.

إن هذه التجربة وإن كانت تجربة تاريخية، إلا أن ذلك لا يعني اقتصارها على ظرف تاريخي زماني لا يمكن أن يتجدد؛ لأن المقومات التي استندت إليها تجربة عمر ﷺ ليست مقومات تاريخية وحسب، بل تتداخل معها الثوابت والمقومات الشرعية التي يمكن لها أن تتجدد، فتتجدد معها تجربة عمر ﷺ أيضاً.

وقد يتكلم بعضهم فيقول: ما مدى شرعية الالتزام بتجربة عمر ﷺ، أليس جديراً أن تكون لنا تجربتنا الخاصة في مجال الحكم؟ إذ لا يمكن تجاهل فعل

التاريخ وحركته وسياقاته، لكنه وعلى الرغم من ذلك تبقى للقيم والمبادئ ثوابتها، وهذا أمر جدير أيضاً ألا يتم تجاهله. فعن ابن مسعود ﷺ قال: «إن الله نظر في قلوب العباد فاختار محمداً ﷺ فبعثه برسالته وانتخبه بعلمه، ثم نظر في قلوب الناس بعده فاختار الله له أصحاباً، فجعلهم أنصار دينه ووزراء نبيه ﷺ، فما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله قبيح»[1]، ويؤكد هذا ما أمر به النبي ﷺ بقوله: «...فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»[2].

وكانت الأمة قد منحت عمر ﷺ ثقتها في كل شيء، ولعل هاتان الشهادتان أبرز ما يدل على ذلك من بين شهادات لا حصر لها، قال خالد ابن الوليد ﷺ، وكان عمر ﷺ قد عزله عن القيادة: «والله لو ولى عمر عليّ امرأة لسمعت وأطعت»[3] ليس لأن عمر ﷺ إماماً واجب الطاعة، بل ليقين خالد ﷺ أن ما يريده عمر ﷺ ويفعله لابد من أن يكون موافقاً لدين الله أولاً، وأن فيه الصواب ثانياً. وهذا عبد الله بن الحسن بن الحسين وقد رُئي يوماً يمسح على خفيه، فقيل له: أتمسح؟! فقال: «نعم، قد مسح عمر بن الخطاب، ومن جعل عمر بن الخطاب بينه وبين الله فقد استوثق»[4].

فلما أرخى زمان عمر ﷺ سدوله، وانقضت تجربته، كيف قوّم معاصروه هذه التجربة؟

---

(١) أبو نعيم، حلية الأولياء، ٣٧٥/١.
(٢) الترمذي، سنن الترمذي (٢٦٧٦) قال الألباني: صحيح.
(٣) ابن العماد، شذرات الذهب، ٢٦/١-٢٧ ؛ اليافعي، مرآة الجنان، ٦٩/١.
(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص٢١٢.

قالت السيدة عائشة، رضي الله عنها: «من رأى عمر بن الخطاب عرف أنه خُلِقَ غناءً للإسلام، كان - والله - أحوزياً، نسيج وحده، قد أعد للأمور أقرانها»(١).

أما ابن مسعود ﷺ فقال: «مازلنا أعزة منذ أسلم عمر»(٢). وقال: «كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، قاتلهم حتى تركونا، فصلينا»(٣).

ثم قال: «إن عمر كان للإسلام حصناً منيعاً يدخل فيه الإسلام ولا يخرج منه، فلما قتل عمر انثلم الحصن، فالإسلام يخرج منه ولا يدخل فيه»(٤).

وقال حذيفة بن اليمان ﷺ: «كان الإسلام في زمن عمر كالرجل المقبل لا يزداد إلا قرباً، فلما قتل عمر، رحمه الله، كان كالرجل المدبر لا يزداد إلا بعداً»(٥).

وكان يقول: «ما بينكم وبين أن يرسل عليكم الشر فراسخ إلا موت عمر»(٦). وقال صحابي آخر: «فو الله ما من أهل بيت من المسلمين إلا وقد دخل عليهم في موت عمر نقص في دينهم وفي دنياهم»(٧).

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ٢/٣٣٧ ؛ وانظر أيضاً: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١/٤٤.
(٢) ابن قتيبة، المعارف، ص١٨١.
(٣) ابن سعد، الطبقات، ٣/١٩٣؛ الطبري، الرياض النضرة، ص٢٤٤؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٨/٤٣؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١١٥.
(٤) ابن سعد، الطبقات، ٣/٢٧٠.
(٥) ابن سعد، الطبقات، ٣/٢٧١؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١١٥.
(٦) المتقي الهندي، كنز العمال، ١١/٩٥.
(٧) ابن سعد، الطبقات، ٣/٢٧٢.

وقال عليّ ﷺ: «ما سُمينا مؤمنين حتى أسلم عمر»[1]. وسأل معاوية ابن عباس، رضي الله عنهم، عن الخلفاء الأربع، قال: فما تقول في عمر ابن الخطاب؟ قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ أَبَا حَفْصٍ، كَانَ وَاللَّهِ حَلِيفَ الإِسْلامِ، وَمَأْوَى الأَيْتَامِ، وَمَحَلَّ الإِيمَانِ، وَمَلاذَ الضُّعَفَاءِ، وَمَعْقِلَ الْحُنَفَاءِ. لِلْخَلْقِ حِصْنًا، وَلِلْبَأْسِ عَوْنًا.. قَامَ بِحَقِّ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا حَتَّى أَظْهَرَ اللَّهُ الدِّينَ وَفَتَحَ الدِّيَارَ، وَذُكِرَ اللَّهُ فِي الأَقْطَارِ وَالْمَنَاهِلِ وَعَلَى التِّلالِ، وَفِي الضَّوَاحِي وَالْبِقَاعِ، وَعِنْدَ الْخَنَا وَقُورًا، وَفِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ شَكُورًا، وَلِلَّهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَأَوَانٍ ذَكُورًا، فَأَعْقَبَ اللَّهُ مَنْ يُبْغِضُهُ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الْحَسْرَةِ»[2].

وقال ابن عباس، رضي الله عنهما: كان والله – في علمي – قوياً، تقياً، قد وضعت له الحبائل بكل مرصد، فهو لها أحذر من رجل في سوقه قيد.

ولما ذكر عمر ﷺ عند عبد الملك بن مروان قال: «قللوا من ذكره، فهو طعن على الأئمة، وحسرة على الأمة»[3].

أما عمر نفسه، فإنه قال لابنه وهو يعالج الموت: «ويحك ضع خدي على الأرض، عساه أن يرحمني» ثم قال: «بل ويل أمي إن لم يغفر لي»[4]. إنه من شدة تواضعه لا ينظر إلى ما قدم من عمل، بل ينظر إلى ربه عسى أن يرحمه.

---

(1) الطبري، الرياض النضرة، ص٢٤٤.

(2) الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٦٠/٩.

(3) الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء، ١٥٨/١.

(4) ابن القيم، الجواب الكافي، ص٤٦؛ وانظر أيضاً: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٢٩/٣، بل إن معظم المصادر نقلت ذلك.

إن تجربة عمر ﷺ الشخصية في الحكم وإدارة شؤون الأمة جديرة بالدراسة إذاً، فهي على حد شهادة الشهود عبرت حقيقة عن روعة الإسلام في الإدارة والحكم وتحقيق الرقي الحقيقي للأمة وللإسلام، لذا فإن دراسة هذه التجربة لازمة من أجل استقصاء فاعلية المبادئ والقيم ودورها في صياغة العملية السياسية، بما يجعلها رهينة لمصالح الأمة وليست الأمة رهينة لمصالح السياسة والسياسيين. كما أن في سيرة عمر ﷺ درساً لمن أراد أن يكون: تقياً، شريفاً، صادقاً، زاهداً، مخلصاً في عمله.

لقد نجح عمر ﷺ في أن يخلق التوافق الحقيقي بين الأخلاق والسياسة، فقد طبق هذا في نفسه أولاً، وعلى خاصته ثانياً، وعلى أمته ثالثاً، بل إنه لم يكن أقل أخلاقية في التعامل حتى مع أعداء الأمة، الذين جاهدهم في ميدان الحرب.

نسأل الله تعالى الثبات والسداد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول
ولاية الأمر

عند الحديث عن أية حكومة أو نظام حكم، لا يمكن القفز من فوق السمات الشخصية للقائم على أمر الحكم، فمهما كان نظام الحكم جماعياً أو فردياً فإن بصمة الحاكم لابد من أن تكون ظاهرة بيّنة فيما يتم اتخاذه من سياسات.

لقد نجح عمر ﷺ، في أن يشيد دولة ترامت أطرافها شرقاً وغرباً، عبّرت عن جهد عسكري وسياسي فائق الفاعلية والتأثير، غير أن الملفت للنظر أن هذا الانخراط في عمل عسكري استغرق معظم خلافة عمر لم ينعكس سلباً على ظروف الحياة بكل جوانبها، فلم يتذرع بـ(ظروف الحرب) ليفرض حالة (طوارئ) تعقد الحياة، وتعطل الشرائع، وتحجب الحريات، فليس ثمة أحكام عرفية أو تشريعات استثنائية؛ وإقراراً من كل منصف فإن خلافة عمر ﷺ كانت مثالاً للعدل وإحقاق الحقوق، فكان الضعيف قوياً حتى أخذ عمر ﷺ الحق له، وكان القوي ضعيفاً متى أخذ عمر ﷺ الحق منه.

ولم يحل انشغال عمر ﷺ بلوازم الجهاد الكثيرة دون رعاية لجوانب الحياة الأخرى، فليس ثمّ (كائن) لم ينل حقه من رعاية عمر. ولم يكن ثمّ (مكان) فاتت عمر ﷺ متابعته. وبمثل هذه القياسات تصبح دراسة (أخلاقيات) عمر ﷺ بوصفه حاكماً ووليّاً للأمر مسألة جديرة بالعناية، فالنجاح الذي

حققه، لم يأت من فراغ، بل أسهمت فيه عوامل عدة، في مقدمتها (شخصية عمر ﷺ نفسها، بمواصفاتها ومقاساتها الخاصة، وذلك ما سنجتهد في تبينه.

أولاً: همّ الأمة الشغل الشاغل لعمر ﷺ:

كانت هموم الأمة ومشاغلها شغل عمر الشاغل في كل سكناته وحركاته، حتى صلاته كانت تتخللها شوارد تقوده إلى هموم أمته، إدراكا منه لعظم الأمانة التي حملها، قال عن صلاته: «إني لأجهز الجيش وأنا في الصلاة»، فعلّق ابن القيم على ذلك: إن عمر كانت تتزاحم عليه الخواطر في مراضي الله تعالى، فإذا به يجمع بين الصلاة والجهاد، وهذا من باب تداخل العبادات في عبادة واحدة[1]. فضلاً عن أن ذلك يعبر عن صدق تحسسه لحاجات الأمة وسلامة طويته تجاهها، فهو صادق في حمل الأمانة، صادق في أدائها.

وثمّ مظهر آخر عبّر عن عمق تحسسه لمشاغل الأمة، إذ قال ﷺ: «لو مات جمل ضياعاً على شط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه»[2]. فمن يتصدى لولاية الأمر فإن أمامه أحد سبيلين: إما أن يعتقد أنه نال بذلك مغنماً ومكسباً، فيرتع فيه من دون تورع، وإما أن يعتقد أنه تقلد بذلك أمانة عظيمة، (الله) بعظمة جلاله هو الذي سيسأله عنها. وهما سبيلان يستحيل الجمع بينهما بحال. فلم يجد عمر ﷺ إلا أن يسلك السبيل الثانية، لعظيم خوفه من الله تعالى.

---

(١) الجواب الكافي، ص ١٦٥-١٦٦.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/٢٢٠.

وثقة عمر ﷺ بنفسه لم توقعه في الغرور، والاعتداد بنفسه، بل لا بد من رقابة الأمة عليه، وكان هو الذي يسعى إلى تنمية هذا الحس عند الأمة، ومن مظاهر ذلك أنه كان يسأل مَن حوله: أملك أنا أم خليفة؟[1] وسأل محمد ابن سلمة أيضاً: كيف تراني يا محمد؟[2]، ليس سؤال من يستدرج المديح والثناء، بل سؤال من يبحث عن النصيحة والمشورة والنقد، أليس هو القائل: «رحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوبي»[3].

ومن عمق استشعار عمر ﷺ لهموم أمته أنه لم يرضَ لنفسه أن (يشبع) لأن المرء إذا شبع، استولى عليه شعور المشبعين، وإذا جاع استشعر حال الجياع. لذلك فإن عمر ﷺ آثر أن لا يشبع حتى لا يفوته حال الفقراء والمساكين، لذلك قال: «بئس الوالي أنا إن شبعت والناس جياع»[4]. ودخل عليه أحدهم ووجد عنده خبزاً وزيتاً، فلما تناول منه لم يسغه، فأشار عليه أن يتخذ لنفسه خبزاً ألين من هذا، فرد عليه عمر ﷺ: «ويلك! أيسع ذلك المسلمين؟» قال: لا، فقال عمر: «أفأردت أن آكل طيباتي في حياتي الدنيا»[5]. وربما زعم بعضهم أن ذلك من عمر مثالية مفرطة. فلا بد لولي الأمر من أن يكون في منتهى الرفاهية حتى يتمكن من (التفكير والتخطيط) لما فيه خير الأمة.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/٢٢١ ؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ١٢/٢٥٦.
(٢) ابن المبارك، الزهد والرقائق، ص١٧٩.
(٣) الفاريابي، تهذيب خالصة الحقائق، ١/٤٤٩.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/١٣٢-١٣٣.
(٥) المحب الطبري، الرياض النضرة، ص٣١٢.

غير أن المؤكد أن الانغماس في الرفاهية سينسي ولي الأمر هذا هموم الجياع والفقراء والمعدمين، وهم اليوم ما أكثرهم! فولاية أمر الأمة، كما تقدم، إما أمانة عظيمة، وإما مغنماً ومرتعاً، ويستحيل الجمع بينهما.

مظهر آخر من مظاهر استشعار عمر ﷺ لهموم الأمة، هو تحسسه لأوضاع المقاتلين المجاهدين في جبهات القتال. فلما احتدمت المعارك في جبهات العراق، كان عمر ﷺ يخرج كل يوم ماشياً وحده على طريق العراق، يقطع مسافة بضعة كيلومترات فلعله يصادف من يأتيه بخبر من هناك[1]. فقد كان قلقه شديداً على إخوانه من المسلمين في سوح الجهاد، ولا سيما بعدما وقعت بعض الإخفاقات هناك. وفي هذا السياق أيضاً رفض ركوب المسلمين البحر للقتال، خوفاً على مصيرهم[2]. فالأمر كان لا يزال مبكراً على مثل هذا المنحى. وكانت أولوياته حفظ حياة المقاتلين، فكل فرد منهم كان على درجة كبيرة من الأهمية، ليس فقط لقلة عدد المسلمين في مواجهة أخطار فادحة في الشمال والشرق والغرب آنذاك، ولكن لأن حفظ حياة كل فرد أمانة في عنق ولي الأمر ينبغي أن يبذل قصارى وسعه للحفاظ عليها.

ولم يقتصر همّ عمر ﷺ على الأمة بوصفها جماعة، بل امتد ذلك إلى الأفراد بوصفهم أفراداً أيضاً، من ذلك على سبيل المثال، أنه كان يتفقد أحوال المدينة ليلاً فعساه أن يغيث صاحب حاجة، فإذا بأعرابي امرأته تضع مولوداً

---

(١) الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٢٣-١٢٤.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/٢٠٤.

وليس ثمّ من يعين في هذه الشدة! فلما علم عمر ﷺ بالأمر سارع إلى اتخاذ ما يلزم، جاء بزوجته لتعين المرأة في حالها، وليعد هو عمر ﷺ نفسه الطعام الممكن لهذه الأسرة. ليس هذا مشهداً مثالياً يعود إلى أزمنة قديمة ليس هناك ما يوجب تكرارها! لكن الأمر يكمن في مغزاه ودلالته، إنه الاستشعار الحقيقي والتحري الصادق عن حاجات الأمة بكل أفرادها، ربما كان لهذا الأمر تجليات أخرى، لكن الأمر في جوهره واحد.

مظهر آخر استشعره عمر ﷺ تجاه أمته، ما يؤكد عمق صدقه تجاه أمته وأمانتها التي تقلدها، هو استشعار مستقبل أمته، فاستشعار الحاضر وحده لا يكفي، إذ إن للمستقبل جذوراً في الحاضر، أي أن الحاضر سوف يتمخض عنه المستقبل، وعليه فإن القائم على الحاضر هو المسؤول عن المستقبل أيضاً، بشكل أو بآخر، ذلك ما كان يتحراه عمر ﷺ أيضاً. فكان يتحرى عن الفتنة وأبوابها واحتمالاتها لكي يوصدها ما أمكنه ذلك[1]، وخاف على أمته من فتنة الرفاهية وكثرة المال حتى بكى من ذلك[2]. كما أنه أعمل جهده من أجل تحقيق العدالة والتوازن الممكن في التصرف في موارد الأمة، الموازنة بين الحاضر والمستقبل، لذلك كان قراره – بعد المشاورة – أن لا توزّع غنيمة الأرض على المقاتلين، بل جعلها وقفاً على بيت مال المسلمين، حتى لا تكون حكراً لفئة من المسلمين تحرم منها أجيال الأمة اللاحقة، لذلك قال للذين طالبوه بتوزيع هذه

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، ١٣/٥٧.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/٣٠.

الأراضي: قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفيء، ولو قسمت الأرض لم يتبقى لمن يأتي بعدكم شيء[1].

وكان من مخاوفه أيضاً تجاه مستقبل الأمة انتشار الأهواء بين الناس وما قد يترتب على ذلك من أمور، فقال: «إن أخوف ما أتخوف عليكم شحّ مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء برأيه، وهي أشدهنّ»[2]؛ لأن ذلك مدعاة لظهور الفتن والزيغ في الدين، ثم تفرق الناس وتصارعهم، واستشراء الفتن، حتى ليكون قتل المسلم أهون الأمور، فقال: «إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي أن يؤخذ منكم الرجل البريء فيؤشر كما يؤشر الجزور، ويشاط لحمه كما يشاط لحمها، ويقال: عاصٍ، وليس بعاصٍ»[3].

كما تخوف عمر ﷺ من العصبية القبلية واحتمالات تجددها بعد ما عمل الإسلام على قمعها لنتانتها، لذلك كتب إلى أمراء الجند: «إذا تداعت القبائل فاضربوهم بالسيف حتى يصيروا إلى دعوة الإسلام»[4]. وكتبوا إليه أن رجلاً نادى: يا آل ضبة! نخوةً للعصبية، فكتب عمر ﷺ إلى عامله هناك: إن كان الرجل قال ذلك فعاقبه أو أدبه، فإن ضبّة لم تدفع عنهم سوءاً ولم تجر إليهم خيراً قط[5].

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص٢٣-٢٤.
(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، ٢١/٢٥٦.
(٣) عبد الرزاق، المصنف، ١١/٣٦٠.
(٤) ابن أبي شيبة، المصنف، ٢١/٦١.
(٥) ابن حزم، المحلى، ١٠/١٤٥.

لقد قاد عمر ﷺ أمته عشر سنوات، كان همّ الأمة شغله الشاغل، حمل في صدره ورأسه كل صغيرة وكبيرة، كل قريب وبعيد، همّ المسلمين وغيرهم، همّ البشر والحجر والشجر، ليقينه أنه مسؤول عن ذلك، ولا بد من أن يعد لكل سؤالٍ جوابه، والأمر عند إدراكه ليس باليسير ولا بالهين، فلا يحق لمن يتقلد أمر الأمة أن يقول عن أمر ما -مهما كان ضئيلاً-: لا أدري، ولم أعرف، فإن كان كذلك فليدع الأمر لمن يقوم به خير قيام، لمن يدري ويعرف ويدرك عظم الأمانة.

ثانياً: توافر عمر ﷺ على الكفاءات اللازمة:

عند إنعام النظر في تكوين عمر ﷺ تجده يتوافر على جملة من القدرات والكفاءات الفائقة مكنته من إدارة دفة الحكم وتوجيه السياسات العامة بما يحقق أعلى مستوى من الأداء في عمل جهاز الدولة. وعلى الرغم من الأهمية الكبيرة للمستشارين والمساعدين في الارتقاء بالعمل، إلا أن ذلك لا يغني عن الكفاءة الشخصية لمن يتقلد أمر الأمة. وقد تجلت كفاءة عمر في جوانب ثلاثة رئيسة تمثلت بذكائه وعلمه وقدرته على الابتكار والتحديث.

فبصدد ذكائه وفطنته قال عمر ﷺ عن نفسه: «لست بخب، والخب لا يخدعني»[1]. وفي هذا السياق أيضاً فإن عمر ﷺ لم يكن الكذب ليمر عليه، فقال عنه الحسن البصري: «إن كان أحد يعرف الكذب إذا حُدّث به إنه

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٤٤/١ ؛ الطرطوشي، سراج الملوك، ص ٦٨.

كذب فهو عمر بن الخطاب»[1]. فكان إذا حدثه رجل بحديث يقول له: «احبس هذه، احبس هذه، فيقول الرجل: كل ما حدثتك به حق، غير ما أمرتني أن أحبسه»[2]. وأهمية الفطنة والذكاء لولي الأمر شأن ضروري ولازم حتى يدرك ما ينبغي عليه من سياسات، وحتى لا يُستغل من بطانته، وحتى لا يُستدرج – ومعه الأمة – إلى مترلق قد تكون وراءه خطورة كبيرة.

ومن مظاهر فطنة عمر ﷺ سبره الأغوار وإدراكه لحقيقة ما وراء ظواهر الأمور، فقال عن نفسه مثلاً: «إذا لم أعلم إلا بما رأيت فلا علمت»[3]، فهو لا يكتفي بالمشاهدات والمرئيات، بل لا بد من القدرة على فهم ما خفي وراء هذه الظواهر، وذلك ضروري للقرارات والسياسات السديدة، فالاستسلام لما يظهر على أنه حقيقة يجر الأمور إلى غير مجراها الحقيقي. وفي هذا السياق أيضاً امتاز عمر ﷺ بفراسته في سبر أغوار الأشخاص، ولذلك أمثلة عديدة، نختار منها الآتي: فقد استعرض جيشاً متجهاً إلى جبهة العراق، فمرت عليه جماعة من الجند، فأعرض عنهم، ثم أعرض ثم أعرض، حتى قيل له في ذلك، فقال: «إني عنهم لمتردد، وما مر بي أقوام أكره إليّ منهم، ثم أمضاهم، فكان فيهم سودان بن حمران، الذي قتل عثمان ﷺ، وإذا فيهم حليف لهم يقال له ابن ملجم هو الذي قتل علياً ﷺ»[4]. طبعاً لا يمكن الركون إلى الفراسة

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٢١/٤٧.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣٢/٧.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٢١/١٠.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤٨٥/٣–٤٨٦.

وحدها تماماً، غير أن ذلك مما يعين ويساعد – مع عوامل أخرى – على فهم الأمور والرجال بشكل فعّال، وضعف الفراسة ينبئ عن ضعف عام أيضاً.

أما بشأن علم عمر ﷺ، فقد كان مميزاً بين الصحابة في سعة علمه، فقد كان حريصاً على أن لا يفوته شيء من سُنّة النبي ﷺ ما استطاع إلى ذلك من سبيل، إذ كان يتناوب مع جار له على الجلوس إلى النبي ﷺ والأخذ عنه، موازنة بين العلم والعمل[1]، فحاز عمر ﷺ على العلم الذي جعله أول السبعة الذين اشتهروا بالفتوى من الصحابة وهم: عمر وعلي وابن مسعود وعائشة وزيد بن ثابت وابن عباس وابن عمر، رضي الله عنهم[2]. ومن الشهادات التي قيلت في علمه: قول ابن عباس، رضي الله عنهما: لو وضع علم عمر في كفة، ووضع علم الناس في كفة لرجح علم عمر؛ وقول معاذ ﷺ: إن أعلم الناس بفريضة – أي الإرث – وأقسمهم لها عمر؛ وقول سعيد بن المسيب: ما أعلم أحداً بعد رسول الله ﷺ أعلم من عمر؛ وقول الشعبي: من سَرّه أن يأخذ بالقضايا، فليأخذ بقضاء عمر، فإنه يستشير[3]؛ وقول حذيفة بن اليمان ﷺ: علم الناس مدسوس في جحر مع علم عمر[4].

وإذا كانت هذه الشهادات بشأن فقه عمر، فإن نجاحاته السياسية والإدارية والعسكرية وغيرها تؤكد أن علمه لم ينحصر في فقهه،

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، ٢٣٣/١.
(٢) ابن القيم، إعلام الموقعين، ١٥/١.
(٣) الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص٣٩.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢٩٦/١.

بل انضاف إليه علم ومعرفة وخبرة في جوانب كثيرة كونت شخصيته الفذّة هذه. وهذا ما يؤكد ضرورة التلازم والتوازن بين العلوم الشرعية والعلوم التي تبنى بها جوانب الحياة المختلفة مما يشكل «**أمور دنياكم**». وأن الخلل في هذا التوازن لا بد من أن ينجم عنه فشل مشروع النهضة، وما تموج به الأمة اليوم من إخفاق حاد ناجم – في أحد جوانبه – عن إهمال القائمين على أمر الأمة للتصور الشرعي لحياة المجتمع والدولة، بل إن ذلك جاء في السياق العام للتصدي للإسلام وعزله عن صناعة الحياة بعامة وليس السياسة فقط.

أما بخصوص مقدرة عمر ﷺ على التطوير والتحديث، فقد تجلت في سياق إدارته للدولة التي أثبت فيها عمر ﷺ مقدرة فذّة على تطوير عمل الدولة إدارياً وسياسياً، حتى باتت الدولة على درجة عالية من الكفاءة في أداء واجباتها ومهامها. فكان من ذلك مثلاً أن عمر ﷺ أول من دَوّن الدواوين[1]. وكانت هذه الدواوين خاصة بالجند. ثم إنه أنشأ دواوين الخراج والجباية المالية، وذلك من خلال إقرار التشكيلات التي كانت قائمة في البلاد قبل فتحها. وذلك ما يشكل التفاتة مهمة من عمر ﷺ الذي أدرك كيفية التفاعل مع المعطيات الحضارية المختلفة للحضارات الأخرى، في ظروف بالغة التعقيد والدقة، وبما لا يتقاطع مع الأحكام الشرعية للإسلام.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٦١٣/٣.

ومن الجوانب والوظائف التي استحدثها عمر ﷺ أيضاً استحداث موظف مسؤول عن الحمى[1] ووظيفة صاحب الأقباض المشرف على الغنائم في الجيوش[2]، ووظيفة الكاتب الذي يرافق الجيش أيضاً[3]، ورتب وظيفة العاشر المسؤول عن جباية الضرائب المفروضة على تجار دار الحرب[4]، واستحدث وظيفة خازن بيت المال[5]، ووظيفة (العامل على البحر) واستحدث الحبوس أيضاً[6]، كما اتخذ (دار الدقيق) التي تخزن فيها المواد الغذائية من دقيق وسويق وتمر وزبيب لإعانة من يحتاج إلى ذلك[7].

وعمر ﷺ، أول من اتخذ التاريخ، وجعل من هجرة النبي ﷺ أساساً للتاريخ[8]. وهو أول من اتخذ العرفاء لمعاونته على النظر في أمور الناس، ولا سيما عند البعوث وتوزيع العطاء[9].

إن أمثال هذه الإجراءات وغيرها، عبرت عما تمتع به عمر ﷺ من قوة، لا أعني القوة المادية، بل قوة الفكر والقدرة على التنظيم وعلى القيادة وعلى

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ١٨/٤.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٨/٤.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١١٦/٤-١١٧.
(٤) المتقي الهندي، كنز العمال، ٢١٩/٤.
(٥) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص ٨٥.
(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٣٣/١٢ ؛ ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ١٨٧/٣٥.
(٧) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٠٣/٣ ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ٢٢٦/٤.
(٨) البيروني، الآثار الباقية، ص ٣١.
(٩) الداؤودي، الأموال، ص١٥٦.

تحمل المسؤوليات بما أهله لتولي أمر الأمة على أفضل مستوى من الأداء، فحق له أن يقول: «لو علمت أن أحداً من الناس أقوى على هذا الأمر مني لكنت أُقدّم فيُضرب عنقي أحب إليّ من أن أليه»[1]، ليس غروراً منه ولا إعجاباً بنفسه، بل ثقة بقدراته التي يعرفها حقاً، وصدقها الواقع التاريخي، كما أن ذلك يأتي في سياق معرفته بنفسه، إذ من الحمق أن يكون المرء عارفاً ولا يعرف أنه عارف.

إن هذه المواصفات التي قدمناها بشأن شخصية عمر ﷺ: الفطنة والعلم والكفاءة تؤشر حقيقة ما ينبغي أن يتصف به ولي الأمر، فالخيرية لا تقتصر على الجانب الديني، بأن يكون صالحاً في دينه. كما إنها لا تقتصر على الكفاءة في أمور الحياة العملية، بل لا بد من التوافر على الجانبين معاً بشكل متوازن، وذلك ما أوجزه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص:٢٦).

ثالثاً: زهد عمر ﷺ:

الزهد هو الإعراض عن رغائب الدنيا وملاذها – حلالها وحرامها – مع القدرة على إتيانها، على أن يكون ذلك تقرباً إلى الله تعالى. وليس أحد أقدر على تناول هذه الملاذ مثل صاحب السلطة، فكل شيء طوع أمره ولا سيما أن الأمر يكتنف على قدر كبير من الإحساس باللذة وإسعاد النفس بتلبية حاجاتها التي تهفو إليها. بيد أن ذلك يجعل صاحب السلطة على مفترق طرق خطيرة

(١) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص٥٢.

جداً، فهذه الرغائب والللذائذ يستدعي بعضها بعضاً حتى يبلغ الأمر بصاحب السلطة أن لا يتورع في دماء الناس، فإذا به يعتقد أنه يحي ويميت. وهنا مكمن الأهمية الفائقة للزهد، فهذا الزهد يرتفع بالمرء إلى مستوى الورع والخوف من الله تعالى، وهو ما سنأتي على بيان طبيعته.

فهل كان عمر ﷺ زاهداً، فلنستدعِ شهادة الشهود في ذلك، قال طلحة بن عبيد الله ﷺ: «ما كان عمر بأولنا إسلاماً، ولا أقدمنا هجرة، ولكنه كان أزهدنا في الدنيا، وأرغبنا في الآخرة»[1] وقال الحسن البصري: «ما فضل عمر أصحاب رسول الله ﷺ أنه كان أطولهم صلاة، وأكثرهم صياماً، ولكنه كان أزهدهم في الدنيا، وأشدهم في أمر الله»[2]. فكان عمر ﷺ يقول: لولا مخافة الحساب لأمرت بحمل يشوى لنا بالتنور[3]. تصور عمر ﷺ وهو يقف على رأس إمبراطورية تمتد على أقاصي الأرض يرى أن أكل (خروف مشوي) عمل ليس له ما يسوغه، بل هو من السرف والبطر ويحق له أن يحذر من الوقوع فيه، وهو من الطعام الحلال، ومن الطيبات لكنه قبل ذلك وبعده ولي أمر هذه الأمة، جعل نفسه بمرتبة أدناهم عيشاً، حتى يصدق حسه في أحوالهم، وذلك وحده ما يرفعه إلى مستوى حمل الأمانة، وحمل أدائها. ثم قارن ذلك بالحال الذي عليها كثير من الحكام ولا يملكون معشار ما ملك عمر ﷺ!!

---

(١) المحب الطبري، الرياض النضرة، ص ٢٤٨.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٤/٢٧٠.

(٣) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص ١١٥.

والأمر على يُسره إلا أنه يعكس منهجاً في الحكم، وفلسفة في إدارة أمر الأمة، فهو ليس ذلك البدوي الذي لا يدرك ملاذ الحياة، ولكنه خوف الله وعبء الأمانة.

ولم يكتف عمر ﷺ بأن جعل طعامه خشناً، بل كان يكتفي بلون واحد منه، ولم يرضَ أن يوضع على مائدته أكثر من لون[1]. أما مقدار طعامه، فقال عنه ابن عباس، رضي الله عنهما: «كانت له كل يوم إحدى عشرة لقمة إلى مثلها من الغد»[2]، إذ لم يكن همّه ولا هم معظم الصحابة الامتلاء من الطعام، بل هو إقامة الأود في الغالب. ذلك ما جعله يتحسس حقيقة حال إخوانه من المسلمين في شدهم، ففي عام الرمادة، إذ حل القحط بالحجاز، كان عمر ﷺ يتولى إطعام الناس بنفسه، فكان يقف متكئاً على عصا كما يصنع الراعي، ثم يدور على القصاع التي فيها طعام الناس، ينادي: يا يرفأ – غلامه – زد هنا لحماً، وزد هنا خبزاً، وزد هنا مرقة، فلما انتهى ودخل بيته دعى بطعامه، فإذا هو خبز بزيت إلى جنبه ملح لم يدق[3]، وإنما يأتي ذلك منه رهافة في الحس، وإدراكاً لمسؤولياته الأخلاقية، فإنه إذا كان قد اختار لنفسه الزهد في العيش، فإنه ليس له أن يملي ذلك على الأمة ويرغمها على الزهد مثله، لذلك اجتهد عمر ﷺ أن يختار لأمته أفضل ما يمكن، مكتفياً هو بالأمر اليسير، متمثلاً

(١) المتقي الهندي، كنز العمال، ٢٨٠/١٢.
(٢) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص١١٠.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٨٧/٤.

لوظيفة الراعي الذي يختار لرعيته أفضل المراتع وأخصبها، أداءً لواجب الأمانة فيما هو أصلح لها.

وعلى المنوال نفسه كان ملبسه، فاكتفى في أغلب أحواله بقميص واحد، فقد تأخر يوماً على الناس في الجمعة، فلما خرج إليهم وصعد المنبر اعتذر إلى الناس؛ لأن قميصه كان بحاجة إلى ما يصلحه، وليس له غيره[1]. ولم يجد عمر ﷺ بأساً في أن يكون أمره أبعد من ذلك، فقد شوهد وهو يرمي الجمار في الحج، وإزاره مرقع على مقعدته[2]. ومما يجدر بيانه أن أخبار ثياب عمر ﷺ هذه جاءت مقترنة مع وصفه أميراً للمؤمنين وليس قبل ذلك، فذلك لم يكن عن فقر منه وضيق في الحال، بل مع سعة وتمكن، فهو خليفة المسلمين، وبيت مالهم تحت تصرفه؛ إلا أنه آثر ألا يرتع في ذلك.

وكشف ذلك عن فلسفة عميقة، فعمر ﷺ أراد أن يظهر بين المسلمين كواحد من أبسطهم وأهونهم حالاً، حتى يسهل على هؤلاء إدراك حقيقة شخصيته فيجدون متسعاً للاتصال به من دون تهيب، وهو لو ارتدى الثياب الفاخرة، لكان ذلك مخالفاً لمنهجه في الزهد أولاً، ولزادت هيبته المعهودة بينهم، ولوجد الفقراء والمساكين في ذلك رسالة مفادها أنه لا ينتمي إليهم، لذلك كانت ثيابه رسالة إلى هؤلاء البسطاء أنه منهم، وليس ثمّ ما يحول دون اتصالهم به من غير خوف أو تردد، لذلك بوسعنا القول: إن الأغنياء والأثرياء كانوا

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٣٨/٣.
(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٣٧/٣.

أشد رهبة ومهابة لعمر ﷺ من الفقراء والمساكين، وذلك ما حال دون بسط جبروتهم عليهم، وهو ما عبّر عنه عمر ﷺ في أول خطبة خطبها بعد توليه الخلافة: «... فاعلموا أن شدتي التي كنتم ترون قد ازدادت أضعافاً، إذ صار الأمر إليّ على الظالم والمعتدي، والأخذ للمسلمين لضعيفهم من قويهم، وإني بعد شدتي تلك واضع خدي بالأرض لأهل العفاف والكف منكم والتسليم»[1]، فقد نشد عمر ﷺ بزهده نصرة الفقراء والضعفاء، وإضعافاً لمن كان فيه شيء من ظلم أو إحساساً بالقوة ممن كان في يده مال.

ومن ناحية أخرى، فقد كانت لعمر ﷺ أسفاره الكثيرة، حاجاً أو معتمراً أو متفقداً لأحوال البلاد، فهل اتخذ عمر ﷺ في أسفاره تلك مظاهر الرفاهية التي تبلغه مقصده بـ(راحة تامة)؟ لقد كان زهد عمر ﷺ في مركبه لا يقل عن زهده في طعامه وثيابه. فقد قصد الشام في سفر من أسفاره، فركب جملاً أورق، تصطفق رجلاه بين شعبتي دابته هذه، وقد جعل تحته كساءً من صوف، يضعه تحته إذا ركب، وهو فراشه إذا نزل، حقيبته شملة محشوة ليفاً، هي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل[2]. وكان بوسعه أن يتخذ لنفسه موكباً فخماً من رواحل عديدة تحمل متاعاً فخماً، ورياشاً مريحة، وعدة لطعامه وشرابه، وكان بوسعه أن يسوغ ذلك بأنه زيادة في المهابة التي هي من لوازم السلطة وبسط النفوذ في الداخل والخارج. لكن عمر ﷺ وجد أن المهابة المتولدة عن زهده

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال، ٥/٢٧٢ ؛ الكندهلوي، حياة الصحابة، ٢/٣٩.
(٢) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص ١١٥.

أعظم في النفوس. وهكذا كان حال عمر ﷺ في مسكنه أيضاً، إذ لا قصور ولا رياش ولا أثاث يُجلب له من أصقاع الأرض وطرائفها، مكتفياً بأبسط حال، ولم يكن منبع ذلك البداوة وبساطتها، بل جاء الأمر مقترناً على الدوام بخوف الله وأداء الأمانة على أفضل وجوهها.

وهكذا يمكن إيجاز أبرز جوانب فلسفة عمر ﷺ في زهده:

١- إذا كان ولي الأمر قد زهد في عيشه لم تتطلع نفسه إلى ما في أيدي الناس، بل إنه يصون أعراضهم وأموالهم وحرماتهم.

٢- والزاهد في عيشه كالصائم، يستشعر ضعف بدنه، فتضعف رغبته في الشهوات عموماً، فيقبل على ما فيه خيره وخير أمته عند الله تعالى.

٣- والزاهد يستشعر أحوال الفقراء والضعفاء في أمته، فيكون ذلك دافعاً في معالجة أحوالهم والرقي بعيشهم.

٤- والزاهد لا يصانع الأغنياء والأثرياء وأصحاب الجاه والنفوذ، فلا يكون نصيراً لهم، وهذا يحد من طغيانهم وتجبرهم ووقوعهم في ظلم الرعية.

٥- والزهد أساس لا غنى عنه للعفة والأمانة والطهارة، فمن لم يكن زاهداً من أصحاب النفوذ ربما لا يردع نفسه عن أن تمتد شهوته إلى مصالح الأمة وحقوقها، عندها لا يعجز عن إيجاد مسوغات كثيرة لذلك.

٦- والزهد أساس حقيقي للعدل، فمن لا يزهد قد يقع في مداراة أصحاب النفوذ والجاه والمال، فإذا وقع في ذلك وقع في الظلم حتماً.

رابعاً: عفة عمر ﷺ وأمانته:

لما تولى عمر ﷺ الخلافة مكث مدة من الزمن يمارس التجارة في السوق مورداً لعيشه، غير أنه صعب عليه التوفيق بين مصلحته لعيشه وإدارة مصالح الأمة، حتى قصر في مصالحه، وظهر ذلك في حاله، فاستشار الصحابة، رضي الله عنهم، في الأمر، فأشار عليه علي ﷺ، أن له في بيت مال المسلمين ما يصلحه ويصلح حال عياله بالمعروف، ويضمن ذلك قوته وقوت عياله، والكسوة له ولأهل بيته في الصيف والشتاء، ودابتان لجهاده وحوائجه مع عدتها[1]. وترجم ذلك عمر ﷺ بقوله: «لا يحل لي من هذا المال إلا ما كنت آكلاً من صلب مالي»[2]، أي أنه يأخذ من بيت مال المسلمين بقدر ما كان يكسبه في عمله قبل أن يصبح خليفة. وبالتالي فإنه لم يجعل من منصبه هذا مرتعاً ومغنماً ليزيد من نفقته.

ولعمر الله، فإن ذلك أعظم درجات النزاهة والعفة في التعامل مع المال العام. وهو بذلك يُعد درساً بليغاً في النزاهة والبعد عن الفساد الإداري والمالي، الذي نخر جسد الأمة اليوم من كل جوانبها، حتى باتت مضرباً للأمثال في ذلك، والسبب يتعلق في الأحوال كلها برأس الهرم.

ومن ناحية أخرى فقد جسد عمر ﷺ (الشفافية) في أعلى صورها في تعامله مع المال العام، فكان أشق أمر عليه أن يرى نفسه بحاجة إلى شيء من

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/٦١٦.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/١٩٨.

بيت مال المسلمين، فقد أشتكى يوماً في بدنه، فوصفوا له العسل، و لم يكن متوفراً سوى قليل منه في بيت المال، فصعد المنبر، وأستأذن المسلمين أن يأخذ شيئاً من هذا العسل، وإلا فإنه حرام عليه، فأذنوا له في ذلك[١]. وكان إذا مسته الحاجة اقترض من بيت المال، وربما تعسر عليه أداء الدين، فيأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه ويلزمه وعمر (يرجوه) أن ينظره بعض الوقت، حتى إذا حل عطاؤه أدى ما عليه من دين[٢]. فأية أمانة هذه التي تجعل (أمير المؤمنين) يرجو من أحد موظفيه أن يمهله، ويلح في التوسل حتى يفرج الله عليه فيؤدي ما بذمته من دين، وليس لمنصف أن يدعي أن مثل هذا قد تكرر في التاريخ، لكن ذلك ليس مستحيلاً على من قرر أن لا يخون أمانته.

إن عمر ﷺ في سلوكه هذا يدرك أنه مربٍ لهذه الأمة وأسوة لها، فكيف يصنع هو تصنع هي، لذلك كان يقول: «إن الناس لم يزالوا مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهُداهم» وقال أيضاً: «الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله، فإذا رتع الإمام رتعوا»[٣].

ولما آثر عمر ﷺ على نفسه أداء أمانة الأمة هذه فعف في حقوقها، جعل ذلك أيضاً منهجاً لأهل بيته، فقد كسح معيقيب - خازن بيت المال - بيت

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١٩٨/٣؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٠٨/٤.

(٢) ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، ٣٧٣/١ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١٩٨/٣.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢١٠/٣.

المال يوماً فوجد فيه درهماً فدفعه إلى أحد الصغار من أبناء عمر ﷺ وانصرف إلى بيته، فإذا رسول عمر ﷺ يستدعيه، فقال له: ويحك يامعيقيب! أوجدت عليّ في نفسك شيئاً؟ ومالي ومالك؟ فقال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟! قال: أردت أن تخاصمني أمة محمد ﷺ في هذا الدرهم يوم القيامة؟![1]؛ وبعث أبو موسى الأشعري ﷺ إلى عمر ﷺ بحلية من العراق، فوضعت بين يديه، وفي حجره أسماء بنت زيد بن الخطاب، وكانت أحب إليه من نفسه، فأخذت الصبية من الحلية خاتماً فوضعته في إصبعها، فأقبل عمر ﷺ عليها يقبلها ويلتزمها حتى غفلت، فأخذ الخاتم من يدها فرمى به ثم قال: خذوها عني[2]. وجاءه رجل من قرابته، فسأله المعونة من بيت المال، فزبره وزجره وأخرجه، فكلموه فيه، فقال: سألني من مال الله، فما معذرتي إن لقيت الله وقد خُنت أمانته[3].

فالحاكم إذا عف في أموال الأمة كان حائلاً بينها وبين من يريد أن يغتنمها بغير حق، فإذا وقع في هذا المال وخان الأمانة فيه لم يعد بوسعه أن يمنع الآخرين من أن يخونوا كما خان هو، إذ لا حجة له عليهم، بل الحجة قائمة لهم عليه.

(١) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص ٨٥.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٥١/٤٧.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٠٣/٤.

خامساً: خوف عمر ﷺ من الله تعالى:

إن لله تعالى سطوة ينبغي للعاقل أن يحسب لها ألف حساب فإن الله تعالى يعذب بالنار ويُخلد فيها أيضاً، وهذا فضلاً عن انتقامه في الحياة الدنيا، إذ قد يعجل الله تعالى العذاب لمستحقيه في حياتهم الدنيا، فتتعاقب عليهم النكبات والمصائب بما يستحقون. لذلك ترتب على كل عاقل أن يروض نفسه على مخالفة الله تعالى، يحاسب نفسه على مثاقيل الذر: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة:٧-٨)، وإن الله تعالى لا يخفى عليه شيء من ذلك: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة:١٨)، ثم يروض المرء نفسه على محاسبتها، فكلما انقضى نهار وجنّ عليه الليل وضع نفسه تحت الحساب يسألها عما عملت في يومها ذاك، ثم يضعه في إحدى كفتي ميزانه لينظر بعينه كيف حاله.

وانطلاقاً من هذا المنهج جاءت صرخة عمر ﷺ المدوية: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم»[1] وكان من صور محاسبة عمر ﷺ لنفسه أنه كان يدني يده من النار ثم يقول: «يا ابن الخطاب! هل لك على هذا صبر؟»[2]. وكان يردد: أكثروا ذكر النار، فإن حرها شديد، وأن قعرها بعيد، وإن مقامعها من حديد[3].

(١) ابن الجوزي، صفوة الصفوة، ١٢٧/١ ؛ وله أيضاً: ذم الهوى، ٤٠ ؛ المحاسبي، رسالة المسترشدين، ص١٣٧؛ الغزالي، مكاشفة القلوب، ص ٤٠٧.
(٢) ابن رجب الحنبلي، لطائف المعارف، ص٥٥٦.
(٣) الفاريابي، تهذيب خالصة الحقائق، ٧٠٢/٢.

وكان إذا رجع إلى بيته آخر النهار، وهجم عليه الليل، وآوى الناس إلى فرشهم، فإن له شأناً آخر، إذ تبدأ جولة أخرى من محاسبة النفس، وقد يبدو له من عمله وهواجسه ما يزيده خوفاً من الله، فيتراءى له مشهد النار وهي تتأجج والعصاة يصطلون فيها ويصرخون من هول ما يلقون، فيندفع في البكاء، حتى رسمت الدموع على خديه (خطان أسودان)[1] أليس هو القائل: «لو نادى منادٍ من السماء: يا أيها الناس! لا يدخل النار إلا رجل واحد، لخفت أن أكون أنا ذلك الرجل»[2].

ومن ناحية أخرى، فإن عمر ﷺ قد يغفل عن محاسبة نفسه، أو قد يفوته أمر ما، لذلك عمد إلى إعداد أمته وتدريبها على محاسبته، فخاطب الأنصار والمهاجرين في مجلس له فقال: «أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ما كنتم فاعلين؟ فسكتوا، فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً، فقال بشر بن سعد: لو فعلت ذلك لقومناك تقويم القدح! فقال عمر: أنتم إذاً، أنتم إذاً، أنتم إذاً»[3]، يريد بذلك: أنتم الرجال حقاً، أنتم الصادقون حقاً، أنتم المؤمنون حقاً. وهذا المنهج قد لا نجد نظيراً له، بل ربما شاع العكس من ذلك، فنجد الحكام يدربون أممهم ويروضونها لتكون خانعة راضية مستسلمة لكل أمر، لا تحسن محاسبة أحد.

وحتى تبقى جذوة الخوف من الله متقدة كان عمر ﷺ يعمد إلى من يخوفه من الله تعالى ويذكره به، فكان يقول لأبي موسى الأشعري ﷺ:

(١) الإمام أحمد، الزهد، ص ١٠٠؛ البيهقي، شُعب الإيمان، ١/٤٩٣.
(٢) الأصفهاني، حلية الأولياء، ١/٥٣.
(٣) المتقي الهندي، كنز العمال، ٥/٢٧٤.

ذكّرنا[1]؛ ويقول لكعب الأحبار: ياكعب خوّفنا[2]؛ أن يحدثه عن النار وعذاباتها وشقاوة أهلها وتعاسة أحوالهم، ثم يقول له: يا كعب حدثنا عن الموت[3]. وكان إذا مرّت به آيات العذاب اشتد بكاؤه[4]. لذلك فإن عمر ﷺ كان إذا هم بأمر ثم ذُكر بالله تعالى أمسك خوفاً وحياءً من الله تعالى، فقد همّ بضرب أحدهم بالدِرَّة التي يحملها، فقال له هذا: أذكرك الله، فطرح الدِرَّة من يده، وقال: لقد ذكرتني عظيماً[5]. إذ من الطبيعي أن يتناغم وجله هذا من ربه مع سلوكه العام ليجعله مستقيماً مع أوامر الله تعالى ونواهيه، ثم لينعكس ذلك على سياسته في إدارة شؤون الأمة، فليس عمر ﷺ من النوع الذي يخشى الله في العلانية ثم يخالف ذلك في سِره، فـ«عمر ليس له ظاهر وباطن، وليس له سياستان سرية ومعلنة، وليست له جملتان، واحدة لنفسه وأخرى للناس»[6]، فلا ازدواجية في السلوك، ولا معايير مزدوجة في التعامل، إنه الصدق والثبات عليه والقوة فيه، وكل ذلك جاء ممزوجاً بالإخلاص المطلق لله تعالى وحده.

---

(١) ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ٦٥/٢٣.

(٢) ابن الجوزي، بستان الواعظين، ص ٤٥.

(٣) ابن الجوزي، بستان الواعظين، ص ١٤٦.

(٤) ابن القيم، الجواب الكافي، ص ٤٦.

(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٢٣/٣.

(٦) حسن العلوي، عمر والتشيع، ص ٦٣.

كل ذلك وعمر ﷺ لا يزكي نفسه، فقد أودع النبي ﷺ عند حذيفة بن اليمان ﷺ خبر المنافقين، فتحين عمر ﷺ الفرصة واستحلفه: «أنشدك الله! هل سماني لك رسول الله ﷺ» فقال: «لا.. ولا أزكي بعدك أحداً»[1].

لقد أصبح عمر ﷺ مدرسة في الورع، والورع ترك الشبهات، وترك ما لا يعنيك، بل إن الصحابة، رضي الله عنهم، آثروا ترك بعض الحلال خوفاً من الوقوع في الشبهات. أتوا إلى عمر ﷺ بمسك، فأمر بقسمته بين المسلمين بحضرته، فسد أنفه حتى لا يشم رائحته، فسألوه عن ذلك؟ فقال: وهل ينتفع إلا برائحته؟[2]، فآثر أن لا ينتفع بهذه الرائحة ولا يتمتع بها؛ لأن هذا المسك هو نصيب المسلمين وليس من نصيبه هو.

وقد يبدو المشهد مثالياً وفيه قدر من التكلف والتصنع، لكنه كان يروض نفسه على ما هو أعظم من ذلك، وهكذا فإن الورع لا بد من أن يبدأ من أيسر الأمور وأهونها، وذلك عينه ما يجعل ولي الأمر عفيفاً وأميناً على مصالح الأمة وحقوقها.

ومن مظاهر ورعه ﷺ أنه لم يخص نفسه بذلك، بل شمل أهله أيضاً، فقد فضل أسامة بن زيد على ابنه عبد الله في العطاء، فلما تعجب عبد الله ﷺ من ذلك قال له: فعلت ذلك لأن زيد بن حارثة كان أحب إلى رسول الله ﷺ مني، وأن أسامة كان أحب إليه منك أيضاً[3]. وهكذا كان عمر ﷺ يقيس الأمور ويزنها بميزان مرضاة الله تعالى.

---

(١) ابن القيم، الجواب الكافي، ص ٤٨.
(٢) المحب الطبري، الرياض النضرة، ص ٣٢٣.
(٣) ابن القيم، الجواب الكافي، ص ٤٨.

سادساً: تواضع عمر ﷺ:

على الرغم من المهابة الكبيرة التي كانت تجلل شخصية عمر ﷺ، إلا أنه كان متواضعاً بشكل ملفت للنظر، ولا تناقض في ذلك، فصدقه في تواضعه هو الذي رفعه وجعل له هذه المهابة. وليس لتواضع عمر ﷺ وجه واحد، بل له مظاهر وتجليات عديدة لها أبعادها العملية. كان عمر ﷺ يجلس للناس عقب كل صلاة، لاباب ولا حجاب، ولا حرس، فيكلمه الناس في شؤونهم وحاجاتهم، فيجيبهم ويتفاعل معهم[1]. وكان يرفض أن يكال له المديح، فقد ناداه أحدهم بقوله: يا خير الناس! فقال له: أدنُ إليّ، أتدري مَنْ هو خير الناس، رجل من البادية له صرمة من الإبل أو الغنم باعها ثم أنفقها في سبيل الله، فكان في ذلك حاجزاً بين المسلمين وعدوهم، فذلك خير الناس[2]. ولم يأنف عمر ﷺ من أن يداوي بيده إبل الصدقة إذا ظهر عليها المرض، حرصاً منه على أموال المسلمين من التلف[3].

ولما وقع الهرمزان في أسر المسلمين، وكان من قادة الفرس وكبرائهم، أحب أن يرى خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، ذاك الذي على يديه انهارت إمبراطوريتهم، فأخذه الأحنف بن قيس وجاء به إلى المدينة، فلما بلغا المدينة بحثا عن عمر ﷺ في ثناياها حتى أرشدهما بعض الغلمان إلى مكانه، فإذا هو

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٠٢/٤.
(٢) السرخسي، شرح السير الكبير، ١٧٠/١.
(٣) الإمام مالك، الموطأ، ٤٦٨/١.

غافٍ في ميمنة المسجد وقد توسد برنسه، فجلسا قريباً ينتظرانه حتى يفيق، فتلفت الهرمزان متعجباً يبحث عن حرس وحشم وحاشية وحجبة يحجبونه، فلما لم يجد شيئاً من ذلك قال: فما لمثل هذا إلا أن يكون نبياً! قالوا: بل يعمل بعمل الأنبياء[1].

هذه جوانب من تواضعه، إلا أن ثمّ ما هو أهم وأخطر، كان عمر ﷺ لا يعجب بنفسه ولا برأيه، لا يترفع عن سماع المشورة والنصيحة، بل إنه كان يبحث عنهما ويتحراهما عند كل أحد. فقد ولى قيادة أحد الجيوش لسويد بن الصامت، فأوصاه بما فيه صلاحه وصلاح جنده، فلما انتهى التفت إليه سويد، فقال: يا أمير المؤمنين! قد أوصيتني فسمعت، وأنا أوصيك فاسمع! فقال عمر ﷺ: هات يا سويد، فقال: خَفِ الله عز وجل في الناس ولا تخف الناس في الله، وأحبب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحبه لنفسك... إلى غير ذلك من النصائح والوصايا[2]. فقبل عمر ﷺ منه ولم تأخذه العزة في نفسه ويغضب، بل إن بعض النصائح كان فيها حدة أحياناً، كما فعل الأحنف حين قال له: «يا ابن الخطاب! كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب المسلمين، جاءك رجل يستهديك فضربته، ما تقول لربك غداً إذا لقيته؟!»[3]، فقد تغلبه

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٨٧/٤.

(٢) ابن أعثم، الفتوح، ٢٣٣/١-٢٣٤.

(٣) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص ٨٩ -٩٠.

الحدة أحياناً، التي كانت في طبعه أصلاً، ولكن لا يأنف من الاعتذار والتأسف، بل حتى يعاقب نفسه ويقتص منها؛ فذلك أهون عليه كثيراً من حساب الله تعالى له.

ومن مظاهر تواضعه المهمة أنه لا يجد بأساً في أن يعود عن رأيه وقبول آراء الآخرين إذا وجد الصواب عندهم، من غير معاندة أو اعتداد غير مسوغ أو ترفع بجهالة: فقد خطب على المنبر ونهى عن الزيادة في مهور النساء، فقامت امرأة من صف الناس وقالت: ليس لك ذلك! هكذا اعترضت ببساطة وعفوية وثقة واطمئنان إلى أن ذلك من حقها، فرد عمر ﷺ من جانبه: ولِمَ؟ بلا زجر ولا غضب ولا تعنت، قالت: لأن الله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٢٠)، فما كان من عمر ﷺ إلا أن قال ببساطة: امرأة أصابت وأخطأ رجل[١]. لو كان عمر ﷺ يأخذ من ينصحه أو يشير عليه أو يبدي رأياً بالشدة والغلظة ما وصله من أحدهم رأياً سديداً، ولوقعت أخطاء قد تسبب خللاً كبيراً. بل إن عمر ﷺ لم يأنف من السؤال عما لا يعرف، فبينما هو على المنبر، قال: أيها الناس! ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ (النحل:٤٧)، فسكت الناس، ثم قال شيخ من بني هذيل: هي لغتنا يا أمير المؤمنين، فالتخوف عندنا هو التنقص[٢].

---

(١) ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ٣/٧٦٢.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٠/١١٠.

هكذا هو عمر ﷺ، تجده في أحوال مهاباً ليس ثمّ من بلغ مهابته في النفوس، ثم تجده في أحوال أخرى واحداً من أبسط الناس وألينهم، مزج ذلك في تكوينه ثم سخره لخدمة أمته على أفضل حال.

سابعاً: حلم عمر ﷺ ورحمته بين الناس:

إن للسلطة إغراءً وإغواءً قلّ من صمد إزاءهما، فإذا بالحاكم يرى في نفسه أنه المحيي المميت، المالك لرقاب الناس، وذلك ما صوره المشهد القرآني في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ (البقرة:٢٥٨)، ولم يكن هذا الملك سوى واحداً من عشرات أو ربما المئات من الحكام المتسلطين، الذين استهوتهم هذه الصورة المتخيلة فمارسوها في الواقع، فقتلوا من شاءوا، وأحيوا من شاءوا بقرارات استبدادهم وطغيانهم، متلذذين بهذه اللعبة التي خلت فيها قلوب الحكام من معاني الشفقة والرحمة على رعيتهم، معتقدين أنهم قد استعبدوا هذه الرعية وملكوا رقابها.

لقد كان الحلم سجية ميزت عمر ﷺ، على ما فيه من مهابة وشدة بأس، وربما برزت هذه السجية بعد توليه الخلافة أكثر من قبل. فجرى حوار احتدم بين عمر ﷺ – وهو الخليفة – ورجل من عامة المسلمين، فقال الرجل: «اتق الله يا أمير المؤمنين»، فأثار ذلك حفيظة أحدهم ووجد في هذا القول استفزازاً لعمر، فأراد زجر الرجل، إلا أن عمر ﷺ قال له: «دعه فليقلها لي، نعم ما قال»، ثم قال: «لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم»[1].

---

(١) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص١١٩.

وقفت له امرأة على قارعة الطريق، فنادته: «يا عمرا» بالبساطة والعفوية المعهودة في بسطاء الناس، فوقف لها عمر ﷺ يسمع منها، فقالت: «كنا نعرفك مدّة عميراً، ثم صرت من بعد عُمير عمر، ثم صرت من بعد عمر أمير المؤمنين، فاتق الله يا ابن الخطاب، وانظر في أمور الناس، فإنه مَنْ خَافَ الْوَعِيدَ قُرِّبَ عَلَيْهِ الْبَعِيدُ، وَمَنْ خَافَ الْمَوْتَ خَشِيَ الْفَوْتَ» فبكى عمر ﷺ من قولها، فالمرأة مزجت التذكير بالنقد، فبكى خوفاً من تقصيره في أمانته[1].

إن الأهمية الكبيرة للحلم، وقد أبداه عمر ﷺ بنطاق واسع، تتجسد في الدلالات التي يعكسها في سلوك صاحبه، فالحلم يعكس أولاً رجاحة عقل الحليم، وإنه قادر على تفهم الأمر الذي حلم عليه، وإنه استوعبه وتفاعل معه إيجابياً وبذهن منفتح، ومثل هذا المنهج يرسخ الثقة بين الأمة وولي أمرها، وهذه الثقة أساس ناجح لعلاقة إيجابية بين الطرفين، فإن كان الأمر خلاف ذلك، وكشف ولي الأمر عن ضيقه وتبرمه بمن وجد فيه مخالفة ما واشتد غضبه عليه، تسبب ذلك بانكماش العلاقة بين الأمة وولي أمرها، ومثل هذا الانكماش قد يقود إلى مزيد من الانحدار في هذه العلاقة ربما وصل حد إشهار السيف والتمرد على السلطة. كما إن الحلم يكشف أن صاحب السلطة والنفوذ لا يبادر إلى سلطته ونفوذه فيستعين بهما في التعامل مع مخالفيه بأي شكل، وهذا يعني أن القوة والسطوة لا توضع إلا في محلها المناسب والشرعي، وهذا يطمئن الأمة بدوره، ويزيد أكثر في الثقة بين الطرفين.

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢/٣٥٨-٣٥٩.

وإلى جانب ذلك كانت الرحمة بالأمة هاجساً أشغل عمر ﷺ كثيراً، متأسياً في ذلك بالنبي ﷺ، وكان يتحرى للأمة كل ما فيه تخفيف عنها ورحمة بها، فكان يخاطب الناس ويقول لهم: «إذا حضرتمونا فاسألوا في العفو جهدكم، فإني أن أخطئ في العفو أحب إليّ من أن أخطئ في العقوبة»[1].

بل إن رحمة عمر ﷺ لم تقتصر على البشر، فامتدت إلى المخلوقات الأخرى، فقد حدث الأحنف بن قيس قائلاً: جئنا عمر بفتح كبير من إحدى جبهات المشرق، فسأله عمر ﷺ: أين نزلتم؟ فقال: في مكان كذا، فقام عمر ﷺ معهم حتى أتوا مكان رواحلهم، فجعل عمر ﷺ يتفحصها وينظر إليها ثم قال: «ألا اتقيتم الله في ركابكم هذه؟ أما علمتم أن لها عليكم حقاً؟ ألا خليتم عنها؟»[2]، وذلك يعكس عن مبلغ ما يكنه عمر ﷺ في صدره من الرحمة تجاه كل ما هو حي، ولعل حسن تدبير شؤون الأمة ومصالحها هو من الرحمة بها أيضاً.

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال، ٣/٢٩٤.

(٢) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص ٨٩.

الفصل الثاني

حفظ الدين

أولاً: كان عمر ﷺ أشدهم في دين الله:

إن من أعظم الواجبات والمسؤوليات الأخلاقية، التي يتحملها مَنْ يتولى أمر هذه الأمة أن يحفظ لها دينها من الوجوه كافة، بإمضاء أحكامه، وحمل الأمة على الأخذ بها، وحفظ سلامته من التشويه والتحريف؛ وأجمع كتّاب السياسة المسلمون بأن واجب الإمامة الرئيس حراسة الدين وسياسة الدنيا على مقتضاه، وذلك ما استشعره عمر ﷺ عند توليه الخلافة فقال: «ورب الكعبة لأحملنهم على الطريق»[1]؛ وقد يثير هذا التساؤل الآتي: هل كان عمر ﷺ متشدداً في دين الله، أم كان شديداً فيه؟ ولا يخفى أن الفرق بيّن، فالشديد هو القوي، والشديد في الدين هو الذي يأخذه بقوة ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ (مريم:١٢)، فيقيم الدين لا يتهاون فيه، ويكون ذلك على بينة وبصيرة، أمّا المتشدد فهو المتزمت والمتعصب، ويسد المنافذ أمام كل أشكال الاختلاف، السائغ وغير السائغ. ولقد جاءت النصوص والوقائع لتؤكد أن عمر ﷺ كان شديداً في دين الله وليس متشدداً، فقد قال فيه النبي ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ١٣٥/٤.

أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر بن الخطاب»[1]. ووُصِف بأنه «كان وقافاً عند كتاب الله عز وجل»[2].

ومن ناحية أخرى، كان عمر ﷺ على درجة عالية من المرونة، فيما يسع المرء أن يكون فيه مرناً، فلا يتشدد ولا يتصلب، حتى قال فيه ابن مسعود ﷺ، وقد عايشه وتلمس منهجه مع الأمة: «كان عمر إذا سلك بنا طريقاً وجدناه سهلاً»[3]. ومن مظاهر مرونته أنه «كان يلعن من يسأل عما لم يكن»[4]، خشية أن يكون ذلك سبباً في التشديد على الناس، وحملهم على ما يرهقهم. وهكذا تجد عمر ﷺ قد تراوح بين الشدة والمرونة، كان شديداً في دين الله، لا يرى متسعاً – مهما صغر – لمخالفة أو تهاون أو تنقص في أمور الدين، ثم تجده أسهل الناس وأكثرهم مرونة إن كان في ذلك متسعاً مهما دق أو صغر، وهذا هو التوازن الحقيقي في فهم الإسلام وتعاطيه وحمل الناس عليه.

ثانياً: حفظ العقيدة:

لا ريب في أن العقيدة تشكل أصل الدين وركنه الرئيس، الذي يقوم عليه، فإذا صحت العقيدة صح الدين، وإذا فسدت فما بقي لا نفع منه. وقد أدرك عمر ﷺ من جانبه خطورة التحولات الكبيرة التي بدأ يشهدها المجتمع الإسلامي في ظل حركة الفتوحات التي امتدت بالدولة شمالاً وشرقاً وغرباً،

---

(١) ابن أبي عاصم، كتاب السنّة، ص٥٣٨، قال الشيخ الألباني: صحيح.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٧/٣٤٧.
(٣) الدارمي، السنن (٢٨٦٥).
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٦/٣٣٢.

فقد انتشر الإسلام بين أمم وشعوب كثيرة. غير أن ذلك لم يكن ليمر من دون نتائج عرضية سالبة، فهذه الأمم والشعوب لم تكن خالية الوفاض، بل لها معتقداتها وأفكارها ومنظوماتها الحضارية الخاصة، ولا بد من أن الاتصال والتداخل مع هذه الجماعات سيقود – شاء المسلمون أم أبوا – إلى تبادل التأثيرات في جوانب الحياة كافة.

لقد أدرك عمر ﷺ من جانبه أن لبعض هذه المؤثرات أثراً خطيراً، فلم يكن متوقعاً أن أحداً من المسلمين سيتأثر بمعبودات تلك الأمم، ولكن الخوف يتعلق بمنهج التفكير، فالمسلمون تلقوا الوحي عن رسول الله ﷺ ففهموه وأدركوا مراده، فأقاموه في أنفسهم من غير أن تكون ثمّ مشكلة، فلما وفدت المؤثرات، بدأ الخلل يتسلل إلى عقول بعض الناس وقلوبهم. وهكذا راح عمر ﷺ يراقب ويحذر وينبه ويعلّم كيفية معالجة الأمر، فقال: «سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسُنن، فإن أصحاب السُنن أعلم بكتاب الله»[1]، إذ يؤكد عمر ﷺ أهمية منهج النقل في فهم الإسلام وتدبره، فما صح من النقل أوثق مما يصل إليه العقل المجرد الذي لا يستنير بالوحي.

وكان صبيغ بن عسل ممن بدأ يثير الشكوك والشبهات بالسؤال عن أمور لا يترتب عليها حكم أو فهم، بل كان ذلك تكلفاً منه لا نفع من ورائه[2]. فعاقبه عمر ﷺ عقوبة شديدة فنفاه إلى البصرة ونهى الناس عن مخالطته[3].

---

(١) الدارمي، السنن (١١٩)؛ السيوطي، الأمر بالاتباع، ص٦١.
(٢) الشاطبي، الموافقات، ١/٤٥.
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٧/٢٩؛ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٤/٦.

لم يكن ذلك منعاً من إبداء الرأي أو الحجر على رأي المخالف، لكنه كان توجيهاً للأمور الوجهة السليمة، فصبيغ هذا لم يكن يريد الاجتهاد في الدين وتكوين رأي أو فكرة، بل كان همه إثارة الشبهات، ربما عن جهل وربما عن عمد، وذلك ما تطلب الإجراء المناسب لحماية الدين من العبث به.

ثم إن تياراً آخر تصدى له عمر ﷺ هو تيار (الرأي) ولكن لنتأمل الأمر كما بيّنه ابن القيم، فقال: الرأي ثلاثة أقسام، رأي باطل، ورأي صحيح، ورأي فيه اشتباه. أما سلف الأمة فقد استعملوا الرأي الصحيح وعملوا به وأفتوا به، وسوغوا القول به. أما الرأي الباطل، فقد ذموه ومنعوا العمل والإفتاء به. أما الثالث، فقد سوغوا العمل والفتيا والقضاء به عند الاضطرار إليه[1]. ثم بيّن أنواع الرأي الباطل وهي: رأي مخالف لنص مخالفة بينة مقصودة، والكلام في الدين بالظن والتخمين، والرأي القائم على الأقيسة الباطلة والفاسدة، ثم الرأي الذي جاء بالبدع وتغيير السُنن[2]. وهكذا فإن الذين أنكر عليهم عمر ﷺ رأيهم هم الذين كانوا أداة لإفساد الدين على الناس وتشويه معانيه ومقاصده وأحكامه، وعن هؤلاء كان يقول: «ألا إن أصحاب الرأي أعداء الدين أعيتهم الأحاديث فأفتوا برأيهم، فضلوا وأضلوا، ألا وإنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ما نضل ما تمسكنا بالأثر»[3].

ومما يشير إلى أن عمر ﷺ لم يكن ينكر الاجتهاد بالرأي أنه هو نفسه كثيراً ما كانت له وقفاته الخاصة في فهم النصوص وتدبرها، والدراسات التي

---

(١) إعلام الموقعين، ٦٨/١.
(٢) إعلام الموقعين، ٦٨/١-٧٠.
(٣) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص٩٨؛ الشاطبي، الاعتصام، ص٥٧٣.

تناولت (فقه عمر) فيها من الأمثلة على ذلك ما هو كثير. ثم إنه أذن للآخرين بالاجتهاد أيضاً، إذا كانوا من أهل الاجتهاد، فقد كتب إلى شريح القاضي يوصيه أن يأخذ في أقضيته وأحكامه بكتاب الله وسُنة نبيه ﷺ أو من سبقه من أهل القضاء، فإن لم يجد «فإن شأت أن تجتهد رأيك فتقدم، وإن شئت أن تتأخر فتأخر»[1]، فلا بأس في أن يجتهد المرء في دينه ويتدبره برأيه لكن ينبغي أن تكون معه العدة اللازمة لذلك، هل يقبل ولي الأمر لدعي يزعم أنه طبيب يداوي الناس فيقتلهم؟! فهل أمر الدين أهون من أمر الطب أم أعظم؟!

كما جرد عمر ﷺ جهده للتصدي لأهل البدع لما بدأت بدعهم تلوح في الأفق، فقد كان يضرب على أيدي (الرجبيين) الذين يصومون رجب كله ويَصِلونه برمضان، وكان ذلك مخالفاً لسُنَّة النبي ﷺ[2]. ورأى أنس يصلي على قبر، فنبهه ونهاه[3]. وكان عمر ﷺ مع قوم في سفر، فلما بلغوا مكاناً، بادروا إليه وهم يقولون: صلى فيه النبي ﷺ، وكأنهم قصدوا التبرك بالمكان وتعظيمه، فقال عمر ﷺ: «إنما هلك أهل الكتاب أنهم اتبعوا آثار أنبيائهم، اتخذوها كنائس وبيعاً، فمن عرضت له الصلاة فليصلِ، وإلا فليمضِ»[4] وعلى هذا المنوال قطع عمر ﷺ شجرة الرضوان، إذ كان الناس يأتون للصلاة عندها ربما بقصد التبرك والتعظيم أيضاً، فخشي عمر ﷺ أن تتحول إلى وثن وقال: «أراكم أيها الناس رجعتم إلى العزى، ألا لا أوتى منذ اليوم بأحد عاد لمثلها

---

(١) ابن القيم، إعلام الموقعين، ١/٦٤.

(٢) ابن وضاح، البدع، ص ٤٤ ؛ الطرطوشي، الحوادث والبدع، ص ١٣٩.

(٣) ابن أبي شيبة، المصنف، ١/١٠٦.

(٤) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١/٢٢٠ ؛ ابن وضاح، البدع، ص ٤٢.

إلا قتلته بالسيف كما يقتل المرتد»، ثم أمر بقطعها[1]. وهي الشجرة التي تمت تحتها بيعة الرضوان عام الحديبية.

وسمع رجلاً يحلف بالكعبة فضربه ناهياً عن ذلك وقال له: الكعبة تطعمك، الكعبة تسقيك؟![2]؛ كل ذلك يعكس حرصه الدقيق على سلامة الدين، وضرورة أداء الأمانة على وجهها، فليست الأمانة تجاه الأموال فحسب بل لا بد من أن تكون تجاه الدين أولاً، فما قيمة الأموال إذا حُفظت وضاع معها دين الأمة ومرشدها إلى الهدى.

ثالثاً: عناية عمر ﷺ بالقرآن الكريم:

عُرف عمر ﷺ ببصيرته الثاقبة، ما جعله يعد للأمور عدتها وليضع كل شيء في نصابه، ويهيء الرجال والحلول للمعضلات التي قد تطرأ على حال الأمة وعلى دينها، ومن ذلك ما يتعلق بجمع القرآن الكريم، ومع أن الأمر تم في غير خلافته، إلاّ أنه كان هو المحرك للأمر. فقد أشار على أبي بكر ﷺ بجمع كتاب الله العزيز في حيز واحد بعدما رأى كثرة من استشهد من أهل القرآن في معركة اليمامة، فخشي إن تكرر ذلك في أماكن ومناسبات أخرى أن يذهب كثير من القرآن. فاقتنع أبو بكر ﷺ بالأمر، فتم تكليف زيد بن ثابت ﷺ بتتبع كل ما كان مكتوباً من القرآن وما كان في صدور الرجال، ثم أودع ما جمع عند أبي بكر، ثم صار إلى عمر ثم إلى حفصة أم المؤمنين[3].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥٣/١؛ الطرطوشي، الحوادث والبدع، ص١٤٨.

(٢) الفاكهي، أخبار مكة، ص٤.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، ٧٠٠/٨ -٧٠١.

ولما بدأ الناس يتوسعون في كتابة المصحف ونسخه فإنه نبه على أمور تساعد في صحة ما يُكتب منها قوله: «لا يملي في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف»، لذلك لما أراد بعض الأنصار موافقة عمر ﷺ على كتابتهم المصحف لم يسمح لهم؛ لأن في لسانهم لحن، وخشي أن يُحدثوا في القرآن لحناً[1].

ومن ناحية أخرى، فإن عمر ﷺ شجع الناس في الأمصار على حفظ القرآن وتلاوته وتدبره، إذ أن الإسلام كان لا يزال هناك غضاً طرياً لم يشتد عوده بعد، فوجد أن من واجبه تحفيز ذلك والحض عليه، فكتب إلى أمراء الأمصار: «ارفعوا إليّ كل من حمل القرآن، حتى ألحقهم في شرف العطاءُ»[2]، وفي ذلك تعظيم للقرآن ولأصحابه الذين يحفظونه أيضاً، فهو بذلك رفع منزلة أهل القرآن إلى منزلة أهل بيت النبوة، فسوّاهم هم في العطاء.

ومن ناحية أخرى، فإنه كان ينبه الناس على ضرورة إخلاص عملهم لله تعالى في قراءتهم للقرآن الكريم وحفظه، وأن لا يكون ذلك رياءً وسمعة، فخطب الناس وقال منبهاً: «يا أيها الناس! قد أتى عليّ زمان وأنا أرى من قرأ القرآن يريد الله عز وجل وما عنده، فيخيل لي أن أقواماً قرأوه يريدون به الناس، ويريدون به الدنيا، ألا فأريدوا الله بأعمالكم»[3].

وحتى لا تختلط الأمور على الناس وتشتبه عليهم في هذه المرحلة من تاريخ الإسلام، فإنه نهى عن التعاطي مع كتب الآخرين، فقد بلغه أن رجلاً

---

(١) ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، ٢/٢٧١.

(٢) الكندهلوي، حياة الصحابة، ٣/١٧٦.

(٣) سعيد بن منصور، سنن سعيد بن منصور، ٢/٤١٩.

نسخ (كتاب دانيال) فأرسل في طلبه فضربه تأديباً ونهياً عن إتيان ذلك مرة أخرى، ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم بأن أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من العمل[1].

رابعاً: تعظيم النبي ﷺ وسُنّته:

كان عمر ﷺ شديد الحب للنبي ﷺ والتعظيم له من غير غلو يوقعه في مخالفة شرعية، لذلك وجد عمر ﷺ أن من واجبه التصدي لأية مظاهر تعظيم غير شرعية خوفاً من أن تتحول إلى غلو، وهو ما نبهنا عليه في فقرة سابقة؛ ومن ناحية أخرى فإنه لما وضع العطاء جعل له نظاماً يقوم على التفضيل، فبدأ بآل بيت النبوة وجعلهم في أعلى هرم العطاء وفاءً لحق النبي ﷺ وتعظيماً له. وبلغت به رهافة الحس أنه منع اللغط في مسجد رسول الله ﷺ، وهدد بأن يوجع ضرباً من يفعل ذلك، بل إنه ضرب على ذلك فعلاً[2]. وما كان ذلك إلا امتثالاً منه لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ (الحجرات:٢). ومن ناحية أخرى بلغه أن منافقاً يؤم قومه في الصلاة، فكان لا يقرأ بهم إلا سورة عبس، فأوجعه في العقوبة؛ لأن ذلك المنافق ما قصد إلا أن يضع من رسول الله ﷺ[3].

وفي منهج عمر ﷺ في حب النبي ﷺ وتعظيمه له اتباع سُنّته لا يحيد عنها، من ذلك مثلاً قوله المشهور: إنه لو لم يرَ النبي ﷺ يقبل الحجر الأسود

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال، ١/١٩٢-١٩٣.

(٢) الكندهلوي، حياة الصحابة، ٣/٨٦-٨٧.

(٣) أبو طالب المكي، قوت القلوب، ١/٢١٧.

ما قبله[1]. وقيل له عن الرملان – المشي السريع – عند السعي بين الصفا والمروة، وقد كانت له غاية خاصة في حج النبي ﷺ، وربما لم يعد له مسوغاً بعد ذلك، فقال: «وأيم الله! لا نَدَعُ شيْئًا كُنّا نَفْعَلُهُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»[2]؟ وتمثل عمر رضي الله عنه الاقتداء في كل جزئيات حياته، صغيرها وكبيرها، فقد بلغه أن يزيد بن أبي سفيان كان يأكل ألواناً عدة من الطعام على مائدته، فتحين الفرصة لزيارته، فلما تبين له صدق ذلك قال: «والله يا يزيد بن أبي سفيان أطعام بعد طعام؟! والذي نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقتهم»[3]، يريد سنة النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه.

هذا التعظيم للنبي ﷺ ولسُنّته قابله النهي عن (الإكثار) من رواية الحديث النبوي، بل إن عمر رضي الله عنه لم يشجع على كتابته وتدوينه، فقد بعث إلى عدد من الصحابة وعاتبهم على الإكثار من الرواية[4]. وعن قرظة بن كعب قال: «أقبلت في رهط من الأنصار، نريد الكوفة، فشيعنا عمر يمشي معنا، ثم قال لهم: أتدرون لِمَ مشيت معكم يا معشر الأنصار؟ قالوا: نعم، لحقنا، قال: إن لكم لحقاً، ولكنكم سوف تأتون قوماً لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فأقلوا الرواية عن رسول الله (ﷺ) وأنا شريككم»[5] وكان لا يقبل الحديث عن رسول الله ﷺ إلا بشاهدين[6].

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحج، باب تقبيل الحجر الأسود.
(٢) ابن ماجه، سنن ابن ماجه (٢٥٩٢) قال الشيخ الألباني: حسن صحيح.
(٣) ابن المبارك، الزهد والرقائق، ص ٢٠٣-٢٠٤.
(٤) أبو العرب التميمي، كتاب المحن، ٣٨٦ ؛ السخاوي، فتح المغيث، ١٣١/١.
(٥) أبو يوسف، الرد على سير الأوزاعي، ص٣٠.
(٦) أبو يوسف، الرد على سير الأوزاعي، ص٣٠-٣١.

فلماذا كان عمر ﷺ يصنع ذلك؟ ولأجل فهم الأمر نشير إلى رواية تفيد أن ابن سيرين قال: قدمت الكوفة، وفيها أربعة آلاف يطلبون الحديث[1]. وإذا كان هذا قد حصل في زمان لا حق لزمان عمر ﷺ إلا أن مؤشرات ذلك لا بد من أن تكون قد ظهرت في زمن مبكر، لذلك فإن سياسة عمر ﷺ في رواية الحديث انطلقت من الاعتبارات الآتية:

١-حديث النبي ﷺ: «**إياكم وكثرة الحديث عليّ**»[2] قال محقق المصنف: إسناده حسن، وخرّجه كل من ابن ماجه وأحمد والدارمي والحاكم الذي صححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي والطحاوي في مشكل الآثار[3]. ولهذا النهي حكمة لم تفت عمر ﷺ، فعمل بها.

٢- في الأرجح جاء هذا النهي عن التحديث بين عامة الناس، الذين فيهم العالم والجاهل وسيء الفهم والزائغ عن الحق، فيفضي ذلك إلى مساوئ كثيرة، وإلا فإنه لم يمنع من التحديث بين أهل العلم.

٣- ثم إن كثرة التحديث بلا حدود ولا ضوابط – وكان الأمر على أوله بعد – يُسهم في تسريب الخطأ والتحريف غير المقصود بسبب النسيان أو الخطأ في السماع والفهم أو عدم الدقة في النقل.

٤- الخوف من تسرب الكذب أو التدليس المتعمد إلى السُّنّة النبوية إذا أبيح الإكثار من روايتها بين الناس من غير قيود وضوابط، ولا سيما أن العداء للإسلام لم ينقطع يوماً ما.

---

(١) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص٢٠.
(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، ٣٨٥/١٣.
(٣) عبد الرزاق، المصنف، ٢٥٨/١١.

٥- الحرص على أن لا يستبدل الناس السُنّة بالقرآن، وحتى لا يفضي ذلك إلى إهمال كتاب الله تعالى، وإن كان بغير قصد.

والشيء نفسه يمكن أن يقال بشأن تدوين سُنّة المصطفى ﷺ، فقد كان عمر ﷺ بين خيارين صعبين، أن يكتب السُنة فلا تتبدد، أو أن لا يفعل ذلك خوفاً من أن تمتزج بكتاب الله أو تكون بديلاً عنه. فكان قراره أن يحفظ كتاب الله العزيز من هذه الاحتمالات[1]. وقد تبين أن خياره هذا لم يضر بالسُنّة النبوية، فلم يكن الوقت قد فات لما أمر عمر بن عبد العزيز بتدوين السُنّة، وكان القرآن قد حُفظ فعلاً في المصاحف والصدور، ولم تعد ثمة خشية عليه.

خامساً: دولة دعوية:

إن الميزة الرئيسة للدولة الإسلامية أنها دولة دعوية، قامت على دين الإسلام، وتبنت العمل به، والعمل على نشره، فهي دولة صاحبة رسالة تحملها إلى البشر جميعاً، والتقصير في هذا الجانب يعني أن وظيفة هذه الدولة قد أصابها الخلل، وهي كلما تمسكت بالجانب الدعوي، فإن ذلك مؤشر أنها ما زالت على منهج الصواب. وهذا أمر أدركه عمر ﷺ جيداً، ومارسه في مظاهر كثيرة، منها ما هو شخصي مباشر، ومنها ما تبنته مؤسسات الدولة. فكان يجعل من منبر المسلمين وسيلة ليعلمهم جوانب دينهم والعمل به، فكان يعلمهم

---

(١) عبد الرزاق، المصنف، ٢٥٨/١١.

التشهد في الصلاة[1]، ويوجههم إلى صلة أرحامهم[2]، وينبههم أيضاً إلى أخطار الخمر ومما تُعمل وكيف، حتى لا يقعوا في شيء منها[3].

ولم تقتصر ملاحظات عمر ﷺ على العبادات والمعاملات والعقائد، بل تطرق إلى الجوانب السلوكية والأخلاقية في حياة الناس اليومية – فهو إمام هدى مربٍ ومرشد وموجه – فكان يوجههم فيما يُصلح من شأنهم، فقال مرة: «أيها الناس! إن بعض الطمع فقر، وبعض اليأس غنى، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وإنكم مؤجلون في دار الغرور...»[4]، إلى آخر ما في ذلك من نصائح وتوجيهات.

ولم يكن المنبر وسيلة عمر ﷺ الوحيدة، بل تداخل مع الناس في حياتهم، يعلمهم ويرشدهم، فإذا وجدهم تعبوا من الحديث وملوا «أخذ بهم في غرس الشجر»[5]، فهو يدرك أن النفوس لتمل، فإذا ملت لم تعد تتقبل، فيغير الحديث والعمل والمعاملة حتى تتحقق الفائدة. ورأى عمر ﷺ رجلاً يطأطئ رقبته في الصلاة مظهراً التخشع الزائد، فقال له: يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقبة، إنما الخشوع في القلوب[6]. ونظر إلى آخر فوجده يظهر

---

(١) ابن القيم، الوابل الصيب، ص١٥٤.
(٢) البخاري، الأدب المفرد، ص٣٣.
(٣) النسائي، سنن النسائي (٥٥٧٨) قال الشيخ الألباني: صحيح.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/٢١٥-٢١٦.
(٥) السمعاني، أدب الإملاء والاستملاء، ص٦٩.
(٦) الذهبي، الكبائر، ص ١٤٤.

النسك والمسكنة، فخفقه بِدرَّته وقال: لا تُمت علينا ديننا، أماتك الله[1]، إذ تحتاج التربية أحياناً إلى الشدة، والشدة ليست القسوة، وبينهما خيط رفيع لا يدركه إلا من وهب نفسه لله تعالى حقاً.

فإذا كان عمر ﷺ في العاصمة يعلم الناس ويوجههم، فكيف بالناس في الأقاليم؟! لقد أوكل ذلك إلى ولاته وعماله ونبه عليه وقال: «يا أيها الناس! إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسُنّتكم، فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ، فو الذي نفس عمر بيده لأقصنه منه»[2]؛ فكما أن الأئمة ينبغي أن يكونوا هداة، كذلك مساعدوهم وأعوانهم ينبغي أن يكونوا هداة لا جبابرة وطغاة. كما وجه إلى الأمصار الرئيسة من يعلم الناس أمور دينهم[3]، إدراكاً منه لطبيعة المهمة العظيمة المناطة بالدولة، ألا وهي مهمة نشر الإسلام وتعليمه.

سادساً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ويدخل في هذا السياق أيضاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي واحدة من أهم قواعد العمل الإسلامي وأخطرها، فامتدت عناية عمر ﷺ المباشرة إليها، يمارسها بنفسه ويعين عليها. فقد وجد الرجال والنساء يتوضأون من حوض واحدة في الحرم المكي، ففرقهم بِدرَّته، ثم نادى: يا فلان! قال: لبيك، قال: لا لبيك ولا سعديك، ألم آمرك أن تتخذ حياضاً للرجال وأخرى

(١) المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ٢/١٦٤ ؛ السيوطي، الأمر بالاتباع، ص ١٩٦.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢/٢٠٤ ؛ ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص١٥٢.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ٤٦٤ ؛ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٢٠/١٤١.

للنساء[1]؟؛ وأراق عمر لبناً خُلط بماء[2]؛ وأمر بتحريق حانوت كان يباع فيه الخمر[3]؛ وأمر من ينادي بالفارسية، حتى يتعلم غير العرب أيضاً، أن لا يُنبذ في دباء ولا حُنتم ولا مزفت[4]، حتى لا يغدو خمراً؛ ومنع اجتماع الصبيان مع مَن يُتهم بالفاحشة[5]؛ ونبه رجلاً على إزاره الذي يمس الأرض فقال: ارفع إزارك فإنه أتقى وأنقى وأبقى[6]. ووجد في يد ابن عباس، رضي الله عنهما، خاتماً من ذهب، فأخذه ورمى به، وقال ابن عباس، رضي الله عنهما: فلا أنا بحثت عنه، ولا هو رده علي[7].

هذه أطراف من أفعال عمر ﷺ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تدلل على مبلغ عنايته الفائقة في القيام بهذه القاعدة على خير وجه، فهي إحدى المعايير المهمة على سلامة الدين وسلامة القيام به.

ولم يكتف عمر ﷺ بما هو تحت ناظريه، فكتب إلى عمال الأمصار أن يأخذوا الناس بهذه القاعدة أيضاً، فعمر ﷺ إمام المسلمين وخليفتهم – يدرك جيداً – أن مسؤوليته تبدأ من أقرب إنسان إليه لتنتهي عند أقصاهم في أقصى بقعة من بلاد المسلمين. فقد كتب إلى أحد قادته في الأطراف: «يا عتبة

---

(١) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص ١٢٣.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٣١٥/١٠.
(٣) ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ٥٣/٢٨.
(٤) ابن أبي شيبة، المصنف، ٢٧١/١٨.
(٥) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٥٠/٢٨.
(٦) السيوطي، الأمر بالاتباع، ص٣٠٢.
(٧) أبو يعلى، مسند أبي يعلي، ص ٥١٣.

ابن فرقد! إياكم والتنعم وزي أهل الشرك ولبوس الحرير، فإن رسول الله ﷺ نهانا عن لبوس الحرير»[1]؛ وكتب إلى عماله منبهاً ومذكراً: «إنكم بأرض يخالط طعام الناس ولباسهم الميتة، فلا تأكلوا إلا ذكياً، ولا تلبسوا إلا ذكياً»[2].

يتبين من هذا، وغيره كثير، أن عمر ﷺ لم يتهاون في شيء من أمر الدين مهما كان صغيراً أو كبيراً، وهو لم يمالئ في ذلك أحداً بسبب عصبية أو وجاهة أو غير ذلك، فالجميع في الأمر والنهي سواء. وكان عمر ﷺ في منهجه يأخذ باللين والرقة أحياناً وبالشدة والحزم أحياناً أخرى، يوازن في الأمور بحسب تقديره لما هو صالح، وكان الداني والقاصي عنده سواء في الأمر والنهي، فهو المسؤول عنهم جميعاً، لا يمنعه من ذلك بعد البعيد.

سابعاً: العناية بفروض الدين:

يجد إمام المسلمين أن من واجباته المهمة أن يحفظ فروض دينه، ليس في نفسه فحسب، بل في أمته أيضاً؛ لأن ثلم هذه الفروض، يعني ثلماً في الدين، وهذا الثلم لا يبقى على حاله بل يتسع ويزيد حتى يأتي الأمر على الدين كله. هكذا كانت الأمور بالنسبة لعمر ﷺ فكانت الصلاة من أهم الأمور إليه، فهي ميزة المسلمين وشعارهم، أليس من أقامها قد أقام الدين؟! أو ليس من صلحت صلاته صلح سائر عمله؟! لذلك لم يبلغ شيء عند عمر ﷺ من العناية ما بلغته الصلاة، فقد كتب إلى عماله: «إن أهم أموركم عندي الصلاة،

---

(١) الإمام أحمد، المسند (٩٢) .
(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٠٢.

من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لسواها أضيع»[1].

ولما طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، غشي عليه، ولم يجد الناس طريقة يجعلوه يفيق من غيبوبته إلى أن نادى أحدهم عند رأسه: الصلاة يا أمير المؤمنين! ففتح عمر ﷺ عينيه وقال: أصلى الناس[2] ؟

وكان من دأبه في الصلاة العناية بتسوية الصفوف، وأوكل ذلك إلى رجل، ولا سيما في صلاة الصبح، يقوم بتسوية الصفوف واتصالها: فإذا تمت وجه نظره إلى المناكب والأقدام[3] لتسوية ما فيه خلل. وكان يلحظ الناس في صلواقم، فنبه أحدهم على عدم العبث بالحصى الذي فرشت به أرض المسجد، في أثناء الصلاة[4]؛ ونبه آخر على أن تكون صلاته إلى سترة تحول دون مرور الناس أمامه في الصلاة[5]؛ وجمع الناس على صلاة القيام في رمضان (التراويح) بعدما صلوها فرادى، وجعل لهم قارئين، أحدهما للرجال والآخر للنساء[6].

كما أظهر عمر ﷺ عنايته بالزكاة، فكتب إلى عماله وولاته مبيناً لهم الأموال المشمولة بالزكاة ومقدار أنصبتها[7]، حتى يكونوا على بيّنة من أمرهم، وليبينوا ذلك للناس أيضاً. وكان إذا مر بالناس حثهم على أداء الزكاة منبهاً

---

(١) عبد الرزاق، المصنف، ١/٥٣٦-٥٣٧.
(٢) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة، ١/٥٣٢.
(٣) عبد الرزاق، المصنف، ٢/٤٧.
(٤) عبد الرزاق، المصنف، ٢/٢٤٨.
(٥) عبد الرزاق، المصنف، ٢/١٥.
(٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/٢٠٢.
(٧) الإمام مالك، الموطأ، ١/٢٦٥-٢٦٦.

ومعلماً[1]. وقال مؤكداً أهمية الزكاة: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها في فقراء المهاجرين»[2].

وكان اهتمام عمر ﷺ بالحج كبيراً، فهو مؤتمر المسلمين ومحل اجتماعهم ولقائهم وتعارفهم وتعاونهم وتماسكهم. فكان يعلم الناس مناسك حجهم، وينبه المخالف والمخطئ[3]، مؤكداً أن دوره بوصفه إماماً للمسلمين يضعه في موضع المسؤول عن سلامة دينهم، وسلامة إقامته على الوجه الموافق للكتاب والسنة.

ثامناً: إقامة الحدود والتعازير:

شرع الله تعالى منهج العقاب والثواب تقويماً لسلوك الأفراد بما يحقق مصلحتهم ومصلحة المجتمع في الأمور الدينية والدنيوية. ولأن الأمر يحتل درجة عالية من الأهمية، لذلك كان لا بد من حمله على محمل الجد ولا سيما فيما يتعلق بمسألة الحدود الشرعية التي لا يمكن غض الطرف عنها، فهذه حق الله تعالى وحده على عباده، ليس لأحد فيها صلاحية تجاوزها حتى وإن كان نبياً، إذا ثبت ما يوجبها من دون أية شبهات، لذلك قال عمر ﷺ: «إذا رُفعت الحدود وعرف الناس حقوقهم، فلا شفعة بينهم»[4]؛ وقال أيضاً: «لا عفو عن الحدود في شيء منها بعد أن تبلغ الإمام، فإن إقامتها من السنُة»[5].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١١/٢٥.
(٢) ابن شبة، تأريخ المدينة المنورة، ٢/٧٤٥-٧٤٦.
(٣) انظر مثلاً: ابن أبي شيبة، المصنف، ٨/٤١ ؛ ابن المبارك، الزهد والرقائق، ص٥١٦.
(٤) المتقي الهندي، كنز العمال، ٧/٦.
(٥) المتقي الهندي، كنز العمال، ٥/١٥٩.

ولأن في الحدود شدة كبيرة، لذلك أوجبت سُنّة النبي ﷺ دفعها عند أول شبهة، وذلك كان منهج عمر ﷺ أيضاً: «لأن أعطل الحدود بالشبهات أحب إليّ من أن أقيمها في الشبهات»(١). فإذا أقيمت الحدود، وكان معظمها يعتمد – من حيث الوقائع – على الضرب بالسوط، لذلك وجد عمر ﷺ أن من اللازم التوسط في الأمور من غير إفراط ولا تفريط، فقد أتي برجل في حد، فأمر بسوط فجاءوه بسوط فيه قسوة، فقال: أريد ألين من هذا، فجاءوه بسوط فيه لين، فقال: أريد أشد من هذا. وعند إنفاذ الضرب، كان يبغي التوسط أيضاً، فالضارب بالسوط لا يرفع يده كثيراً ليهوي بها بشدة، ولا يتهاون في الأمر(٢).

وكان عمر ﷺ لا يحابي في الحدود مهما كان الشخص الذي سيقع عليه الحد، فقد شرب ابنه عبد الرحمن – وكان يقيم في مصر – نبيذاً واعتقد أنه غير مسكر، فلما خرج الأمر إلى السكر طلب التطهير بإقامة الحد عليه مع صاحب له يدعى أبو سروعة، وألح عبد الرحمن على إقامة الحد عليه، غير أن عمرو بن العاص ﷺ الذي أقام الحد عليهما حاول تخفيف الأمر، فلما بلغ ذلك عمر ﷺ كتب إلى عمرو بن العاص ﷺ مشدداً عليه في القول، ثم أمره بتوجيه ابنه عبد الرحمن إليه، فلما بلغ المدينة كلمه عمر ﷺ بكلام قاس وأمر بإقامة الحد عليه على وفق ما ينبغي من شروط على الرغم من محاولة الصحابة صرف الأمر عنه، بوصف أن الحد قد أقيم عليه، غير أنه أصر على إقامة الحد فأقامه(٣).

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال، ٥/١٥٧.

(٢) أبو يوسف، الرد على سير الأوزاعي، ص ١٥٩.

(٣) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص ١٧٩-١٨٠؛ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٥/١٣٢.

وأضاف عمر ﷺ إلى حد الضرب التغريب (النفي) إذا وجد إلى ذلك ضرورة تعزيرية، غير أنه لما غرّب ربيعة بن أمية في الخمر، لحق هذا ببلاد الروم وتنصر، فقال عمر ﷺ: «لا أغرب بعده مسلماً»[1].

وصادف عمر ﷺ امرأة على حمار والناس حولها في زحمة شديدة وهم ينادون: زنيتِ زنيتِ! وكادوا يحدونها، فسأل عمر ﷺ عن شأنها، فحكت من أمرها ما يفيد أنها أكرهت على هذا الصنيع، فقال: «لو قُتلت هذه خَشيتُ على الأَخْشَبَيْن – جبلان يحيطان بمكة – النار، ثم كتب إلى الأمصار: أن لا يقتل أحد في أي أمر مهما كان من دون مراجعته[2]. وهو ما يشير إلى مبلغ عنايته بأرواح المسلمين وبإقامة الحق والعدل فيهم.

وجيء مرة بأمة سوداء قد سرقت، فقال لها عمر ﷺ: أسرقت؟ قولي: لا. فقالوا له: أتلقنها؟! قال: جئتموني بإنسانة لا تدري ما يراد بها من الخير والشر لتقر حتى أقطعها! [3] وتعكس مثل هذه الواقعة عمق رؤية عمر ﷺ للأمور، فالشريعة ليست نصوصاً مغلقة وجامدة وجاهزة للتطبيق بمقاس واحد في الأحوال كلها، فإذا كان الحكم الشرعي واحداً، فإن إنزاله في الواقع يتطلب فهم كل حالة بظروفها؛ لأن الفتوى تتغير بتغير الأحوال والأزمنة والأمكنة. وهنا تجلت أعظم صور الفهم والإدراك عند عمر ﷺ لما يجب إقامته في الواقع. ففي الوقت الذي كان فيه عمر شديداً في دين الله لا يتهاون فيه، لكنك تجده

(١) النسائي، سنن النسائي (٥٦٧٦) قال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد.
(٢) أبو يوسف، الخراج، ١٥٣.
(٣) المتقي الهندي، كنز العمال، ٢١٦/٥.

في الوقت نفسه عملياً متفاعلاً مع الواقع بما يمكنه من إقامة الدين بطريقة عملية وواقعية، فنجح في تحقيق موازنة دقيقة بين النص والواقع.

أما بالنسبة لعقوبة المرتد، فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[1] وقد أدرك عمر ﷺ أن ذلك لا يعني إنفاذاً فورياً للعقوبة على المرتد، بل لا بد من أن تسبق ذلك إجراءات قد تتيح للمرتد مراجعة نفسه، فربما كان ارتداده تحت ظروف معينة، وربما كان لسوء فهم منه تجاه أمر ما، أو ربما لنزعة طارئة ألمت به، لذلك لا بد من فرصة تتاح أمامه للمراجعة، فقد سأل جماعة من المسلمين وفدوا عليه من جبهات القتال عن أحوالهم وعما معهم من أخبار، متقصياً ومتحرياً عن كل شيء، فأخبروه عن شخص ارتد فقتلوه، فأنكر عليهم عملهم هذا وقال: أفلا أدخلتموه بيتاً وأغلقتم عليه باباً، وأطعمتموه كل يوم رغيفاً، وذلك من قبيل التضييق عليه، ثم استتبتموه ثلاثة أيام، فإن تاب، وإلا قتلتموه، ثم شدد في الإنكار عليهم وقال: «اللهم إني لم أشهد، و لم آمر، و لم أرض إذ بلغني»[2]؛ معبراً بذلك عن طبيعته العملية والواقعية والمتوازنة مع شدة تمسكه بإقامة أحكام شريعة الله تعالى.

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، ١٩٠/٦.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص ١٨؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٤٤٢/١٧.

الفصل الثالث

رعاية مصالح الأمة

أولاً: منهج عمر ﷺ في حفظ مصالح الأمة:

لا شك في أن التربع على عرش السلطة، وما يعنيه ذلك من نفوذ وقوة وسطوة وهيمنة، ثم ما يتبع ذلك في النظم – قديمها وحديثها – من حلقات متتابعة من أشخاص وفئات يصرفون جهودهم لإظهار كل معاني الطاعة والولاء والانقياد لشخص الحاكم، فإذا طال العهد على ذلك، تحول الأمر إلى تعظيم، فتقديس، ثم نوع من التأليه الذي قل من يجرؤ على مخالفته، كل ذلك كفيل بتحويل معادلة الحكم المنطقية إلى لامنطقية، إذ يفرض المنطق أن يقوم الواحد – أي الحاكم – على خدمة الجماعة – أي الأمة – فذلك هو المنطق الأخلاقي الرصين، الذي يقوم عليه العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم، غير أن مسار التاريخ يشهد أن هذا المنطق معكوس، إذ تجتهد الجماعة – الأمة – على تلبية حاجات الواحد – الحاكم – وذلك خرق أخلاقي فاضح.

هنا وقف عمر ﷺ بين قلة قليلة من الحكام في التاريخ وضعوا المعادلة في سياقها الأخلاقي الصحيح. فكل جزئية في سكناته وحركاته تقول: إن عمر ﷺ اجتهد أن يكون خادماً لهذه الأمة ولمصالحها. وإنه تجرد تماماً عن تحقيق أية منفعة غير شرعية لنفسه أو لأسرته أو لعشيرته، بل إنه كان في غالب

الأحوال يؤخر هؤلاء، مشدداً عليهم في النكير، حزماً منه من أن تمتد يد أحدهم إلى مصالح الأمة بوجه غير مشروع؛ لأن فوق الجميع – ببساطة – رباً يسأل عن مثاقيل الذر ويحاسب عليها. لذا فإنه ليس أمام عمر ﷺ -حتى ينجو – إلا أن يضع لنفسه منهجاً صارماً يبعده عن كل مغريات الحاكم والسلطة والقوة والنفوذ. وكان على رأس هذا المنهج أن يكون زاهداً في رغائب الدنيا وشهواتها. فالزهد حصن حصين يأمن من يدخله من المغريات كلها. فلما دخل عمر ﷺ هذا الحصن، اجتهد كثيراً أن لا يثلم ذلك أحد من أهله وعشيرته فيفسد عليه ما قرره لنفسه، فيكون ذلك خط الحماية الثاني – بعد الزهد – الذي يقي الحاكم من خيانة الأمانة.

وهنا قرر عمر ﷺ حقيقة دوره «إني والله لأكون كالسراج، يحرق نفسه ويضيء للناس»[1]، بما يعني أنه قرر أن يصرف كل جهده وقوته ووقته وتفكيره لتحقيق مصالح الأمة في كل جوانبها، من دون أن يجد في ذلك مغنماً له. ثم إن عمر ﷺ وجد في نفسه قوة وقدرة وكفاءة لخدمة أمته، ثقة بما عنده وليس غروراً: «أيها الناس! إني قد وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم استصلاحاً بما ينوب من مهم أموركم، ما توليت ذلك منكم...» [2].

وكان في منهج عمر ﷺ أيضاً أن لا يدخر وسعاً في متابعة أمر الرعية، ولم يقتصر ذلك على الرعية في العاصمة، بل شملت مسؤوليته متابعة أحوالها

---

(١) ابن شبة، أخبار المدينة المنورة، ٣٤٩/٢.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢١٤/٤-٢١٥.

ومصالحها وحقوقها في الأقاليم أيضاً، إما بالسؤال والمكاتبة، أو بالسفر مباشرة إلى هناك للمتابعة الميدانية. وكان من ذلك كتابه إلى أبي موسى الأشعري، يوصيه بوجوه القوم في ناحيته، وأن يتعهدهم بالرعاية والإكرام، فإن هؤلاء يرفعون حوائج الناس إلى الولاة والعمال[1].

وكتب إلى عماله أن يبعثوا إليه برجال يُعرفون بالشدة والجَلَد والصدق والجرأة، ليسأل كلاً منهم عن أحوال الرعية في ناحيته[2]، ثم قرر أن يكون أكثر عمقاً في المتابعة: «لئن عشت - إن شاء الله - لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني، أما عمالهم فلا يرفعونها إلي، وأما هم فلا يصلون إليّ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لنعم الحول هذا!»[3]؛ ويكشف هذا أن ثمّ هاجساً كان يقلقه على الدوام، أن الناس في الأطراف لا ينالون منه الرعاية التي ينالها الناس في الحاضرة، لذلك عزم أن يرحل إليهم بنفسه، فقصد الشام أكثر من مرة، إلا أن المنية لم تسنح له أن ينفذ برنامجه هذا بالكامل.

كان عمر ﷺ يدرب نفسه دوماً على رهافة الحس، فكان إذا بلغه أن الغلاء قد حل بناحية من النواحي، جعل عيشه كعيشهم ويقول: «كيف

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٣/٤.

(٢) البخاري، الأدب المفرد، ص٢١٨.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٠١/٤-٢٠٢.

يكونون مني على بال إذا لم يمسني ما يمسهم!!»[1]، استشعاراً منه بحال الناس هناك حتى ينصلح حالهم فيعود هو أيضاً إلى حاله وعيشه المعهود عنه.

وخص اليتامى بجانب من وقته، فكان يخرج إليهم ويزورهم، يشرف على أموالهم ويتفقد مصالحهم[2]؛ كما خص الغرماء – الذين ثقلت عليهم ديونهم – بعنايته، إذ كان يخرج مناديه فينادي: إنه من كان له على فلان دين، فليأتنا بالغداة[3]، بغية أن يقضي عن المدينين ديونهم. ووجده الأحنف بن قيس يباشر إبل الصدقة بنفسه، فقال له: يا أمير المؤمنين! فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك؟ فقال عمر: «وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف؟! إنه من ولي أمر المسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة»[4].

ولما لم يكن هناك جهاز للشرطة والأمن بعد، وجد عمر ﷺ أن من اللازم أن يقوم بهذا الدور بنفسه عند الحاجة، تحملاً منه لأعباء مسؤولية الحفاظ على مصالح الناس، فكان يخرج ليلاً، مصطحباً أحد الصحابة معه، يعس المدينة ويحرسها من عابث أو لص، أو ربما صاحب حاجة فيلبي له حاجته[5].

ورب قائل يقول: هل هذه هي واجبات الخليفة؟ ألا ينبغي له أن يصرف همّه نحو ما هو أكبر من ذلك؟ ألا يعبر موقف عمر ﷺ عن تبسيط للأمور في

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٥٣/٤.

(٢) الواقدي، فتوح الشام، ٨٥/١.

(٣) الإمام مالك، الموطأ، ٣٨١/٢.

(٤) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص ٦٢.

(٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٥٨/١ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢١٧/٣.

الرؤية والتفكير؟ في الحقيقة فإن الحيثيات، التي جعلت عمر ﷺ يباشر مثل هذه الأمور بنفسه تتمثل في الجوانب الآتية:

١- استشعاره عمق المسؤولية الملقاة على عاتقه، فالحاكم ليس رجلاً متسلطاً على الأمة يتنعم بصلاحيات ونفوذ لا حدود لها، بل إن العبء الذي يتحمله لا يتيح له – في الحقيقة – أن يتنعم بملاذ السلطة، إن كان صادقاً في حمل الأمانة.

٢- إن الدولة لم تكن قد تبلورت فيها المؤسسات والتفاصيل، التي تعين على متابعة كل هذه الواجبات والمهام، مع أن وجود مثل هذه المؤسسات لا يعفي الخليفة من عبء متابعتها من أجل الاطمئنان على سلامة العمل.

٣- ثم إنه أراد بذلك أن يكون القدوة والأسوة لمن هو دونه في المسؤولية ليقتدوا به في عملهم وإدارتهم لشؤون الأمة ومصالحها، كما إنه ليس أحسن من التدريب العملي ليدرك هؤلاء ما يترتب عليهم عمله تجاه الأمة.

ثانياً: العدل أساس بناء الأمة:

إذا كان الحاكم قد أنصف الأمة من نفسه، فهو لها أنصف من غيره، فذلك هو عين العقل والمنطق، فإن من ينتزع حق الأمة من نفسه، فإنه أكثر قوة ورغبة في انتزاع حقها من الآخرين، هكذا اجتهد عمر ﷺ في ترسيخ هذا المبدأ الأخلاقي الخطير! أن لا يجعل للظلم طريقاً إلى نفسه، ولا للتعدي سبيلاً إليها. ومرة أخرى فحتى يأمن على نفسه من مغبة الوقوع في التعدي اتخذ من الزهد منهجاً لحياته، فيقطع عن نفسه دابر الشهوة والتطلع إلى ما في أيدي

الناس، فيمنع نفسه من ظلمهم، ومن ثم يقطع دابر ظلم الظالمين لهم، وذلك هو انتشار لواء العدل. وهنا يقول ابن عباس، رضي الله عنهما: «أكثروا من ذكر عمر، فإن عمر إذا ذُكر ذُكر العدل، وإذا ذُكر العدل ذكر الله»[1].

مرّ عمر ﷺ برجل يكلم امرأة في الطريق، فعلاه بالدِرَّة، فقال الرجل: إنها امرأتي يا أمير المؤمنين! فقال له عمر ﷺ: فاقتص مني إذن. لم يماطل عمر ﷺ ولم يجادل، ولم يقل له أين البينة؟ ومَنْ يؤكد ذلك؟ بل سارع إلى قبولَ ظاهر قوله، فهو بذلك يزرع الثقة اللازمة بين الحاكم والمحكوم، فقال الرجل: قد غفرت لك يا أمير المؤمنين، فقال عمر ﷺ: ليس مغفرتها بيدك، ولكن إن شئت أن تعفو فاعفُ، قال: قد عفوت يا أمير المؤمنين[2].

فكيف كان عمر ﷺ يصنع إذا وجد نفسه طرفاً في خصومة أو نزاع على أمر ما، قال أحدهم: «لو كان عمر ميزاناً لما كان فيه ميط شعيرة»[3]، يريد أن عمر ﷺ في سلوكه وحكمه وعمله أدق وأعدل من الميزان.. اختلف عمر ﷺ مع أبي بن كعب ﷺ في بستان فجعلا بينهما زيد بن ثابت ﷺ، فأتياه في منزله، فتنحى زيد عن صدر فراشه، وقال: ها هنا يا أمير المؤمنين، فقال عمر ﷺ: جُرت يا زيد في أول قضائك، ولكن أجلسني مع خصمي، فجلسا بين يديه فحكم بينهما[4]، فلم يرضَ للقاضي أن يميزه من خصمه بسبب منصبه،

(١) المتقي الهندي، كنز العمال، ٢٦٣/١٢.
(٢) المتقي الهندي، كنز العمال، ١٨٣/٥.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٤٥/١٠.
(٤) وكيع، أخبار القضاة، ١٠٨/١-١٠٩ ؛ الخصاف، أدب القاضي، ص١٢٦.

فالخليفة يقف على قدم المساواة مع أي مواطن أمام الشريعة والقانون، بل ينبغي للحاكم أن يكون أكثر إدراكاً من غيره لخطورة هذا الأمر فيتمثله في سلوكه وإدارته، لا أن يحوّل القضاء والقانون إلى مطية له، فذلك خيانة لا حد لها.

وإذا كان عمر ﷺ قد أخذ الحق من نفسه لأمته، فإنه لابد من أن يأخذه من أهله لأمته أيضاً. فلا يقدمهم على سائر الأمة في شيء من غير مسوغ شرعي. فقد صعد المنبر وأمر الناس ونهاهم فيما فيه مصلحة الأمة، ثم أتى أهله بعد ذلك وقال: «قد سمعتم ما نهيت عنه، وإني لا أعرف أحداً منكم يأتي شيئاً مما نهيت عنه إلا ضاعفت له العذاب ضعفين»[1]. فكما أن عمر ﷺ ليس فوق الشرع، فإن أهله أيضاً ليست لهم مزية تعفيهم من الشرع وأحكامه. بل إنه هددهم بمضاعفة العقوبة عليهم إن كانت منهم مخالفة شرعية؛ لأنهم أسوة يتطلع الناس إليهم، وهم المنظور إليهم من بين الناس، وبالتالي لا بد من أن يكون ميداناً صادقاً للعدل.

ولما أقام عمر ﷺ العدل على أهله، فإنه أقامه أيضاً على وجوه القوم وكبرائهم، فقد حضر باب عمر ﷺ بعض وجوه القوم من قريش، ممن كانوا في الجاهلية أصحاب البأس والقوة والوجاهة، منهم: أبو سفيان وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، وتصادف أن كان على الباب أيضاً ممن كان مستضعفاً في الجاهلية مثل صهيب الرومي وبلال الحبشي وغيرهما ممن شهد بدراً، فخرج الأذن من عمر ﷺ بدخول هؤلاء وتأخير أولئك، فقال

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٠٧/٣.

أبو سفيان: لم أرَ كاليوم قط، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ولا يلتفت إلينا!! فقال سهيل بن عمرو: «أيها القوم! إني والله لقد أرى الذي في وجوهكم، إن كنتم غِضاباً، فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القوم ودُعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دُعوا ليوم القيامة وتُركتم! أما والله لما سبقوكم إليه من الفضل بما لا ترون أشد عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تنافستم عليه»[1]. فعمر ﷺ له مكيال واحد هو مكيال الإسلام والسابقة فيه والعمل له، فهؤلاء الضعفاء كانوا أسبق إلى الإسلام من علية القوم أولئك، وهم الذين قاتلوا عنه وجاهدوا فيه، وأولئك جاءوا لاحقاً، وبالتالي لا بد من أن تكون منزلة هؤلاء الضعفاء أرفع عند عمر ﷺ من أولئك، إنه الحق والعدل الذي كان ديدن عمر ﷺ ومنهجه.

ولم يفت عمر ﷺ أن ينشر لواء العدل في الأقاليم أيضاً، فكان يردد قوله: «أيما عامل لي ظلم أحداً فبلغني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته»[2]، وهكذا فإنه مسؤول مباشرة عن إقامة العدل هناك، وإلا فإنه شريك في كل ظلم بعيداً عنه. إن عمر ﷺ هو الذي يعلم أمته كيف تفكر وكيف تحاسب، فقد حدث قوماً من المسلمين فقال: «أرأيتم إن استعملت عليكم خير مَن أعلم، ثم أمرته بالعدل، أقضيت ما عليّ؟ قالوا: نعم. قال: لا، حتى أنظر في عمله، أعمل

---

(1) الإمام أحمد، الزهد، ص١٩٤؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ١/١٥٧؛ اليافعي، مرآة الجنان، ١/٧٤.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/٢٢٠.

بما أمرته أم لا»[1]. فليس الأمر تولية الأكفاء وحسب، بل لابد من متابعتهم ومراقبتهم ومحاسبتهم، فقد يزل بعضهم تحت ضغط شهوات السلطة وسطوتها، فيقع في ظلم الرعية والخليفة عنه غافل ظناً منه أنه الكفء المستقيم. وهكذا كان عمر ﷺ يتابع أحوال الأمة في كل جوانبها.

اشتكى مصري عند عمر ﷺ بأن ابن عامل مصر ضربه أمام الناس لفوزه عليه في سباق الخيل، ضربه وهو يقول له: خذها وأنا ابنُ الكَرِيمَيْن! فلما ذهب إلى الوالي عمرو بن العاص ﷺ ليشتكي ابنه حبسه هذا أربعة أشهر بدلاً من الانتصاف له. فدعا عمر ﷺ بعمرو بن العاص وابنه محمد، وتحقق منهما من الأمر، فلما تبين له صحة ادعاء المصري، جرد محمد بن عمرو بن العاص من ثيابه – إلا ما ستر عورته-وأعطى المصري سوطاً، وأمره أن يقتص لنفسه، ثم أراد عمر ﷺ أن يقتص المصري من الوالي عمرو بن العاص ﷺ أيضاً، لكن هذا لم يفعل؛ لأنه لم يكن قد ضربه بل حبسه فقط. ثم وجه عمر ﷺ كلامه إلى قريش عامة: «والله يا معشر قريش إن تريدون إلا أن تردوا الناس خولاً، ما مثلهم ومثلكم إلا كقوم اصطحبوا في سفر، فقالوا لرجل: تقدم فأمنا في الصلاة، وأقسم علينا فيأنا، أفأساءوا بذلك أم أحسنوا»[2]، فهو يعتب على قريش أن الناس قدموهم وجعلوهم ولاة أمرهم، فلا يحسن بهم أن يستعبدوهم، ثم قال لعمرو بن العاص: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟! ثم

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال، ٥/٣٠٦.

(٢) أبو العرب التميمي، المحن، ص٣٠٣؛ ابن أعثم، الفتوح، ٢/٨١.

قال للمصري: انصرف راشداً، فإن رابك ريب فاكتب إليّ»[1]، خوفاً عليه ممن قد يفكر بالانتقام منه.

ومن وجوه عنايته بمصالح الأمة إنصافها في أموال الجباية فلا يرهقها، فقد أرسل العمال لمسح أرض السواد وتقدير الخراج عليها، فلما أنجزوا مهمتهم وقدموا له تقريراً بشأن ذلك سألهم إن كانوا أثقلوا على الناس، فردوا أنهم أنصفوا الناس وتركوا لهم فضلاً، بل إن بالإمكان زيادة الضريبة من غير أن يلحقهم ضرر، لكنه رفض أية زيادة مكتفياً بما تم تقديره حتى يبقى للناس سعة تحفزهم على مزيد العمل[2].

وجاءه أبو هريرة ﷺ بأموال الجباية من البحرين - وكان يتولاها - فإذا المال خمسمائة ألف درهم، و لم يكن المسلمين قد اجتمع عندهم مثل هذا المبلغ من قبل، فكان ذلك مثار دهشة عمر ﷺ وقلقه في الوقت نفسه، إذ سأل أبا هريرة: أطيب هذا المال؟ هل المال حلال؟ هل جمع من الحلال؟ بلا ظلم ولا عدوان ولا عسف، قال أبو هريرة: نعم، لا أعلم إلا ذلك[3]. فهو لم يهمه مقدار المبلغ المجموع، و لم يفكر كيف سيوزعه، وكيف (ستنتفع) الأمة منه، بل فكر أولاً أن يكون المال حلالاً بلا ظلم ولا عسف ولا عدوان؛ إذ كيف يسع الأمة أن تنتفع من مال فيه مظلمة لأحد!!

(١) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص٨١.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص ٦٧.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢١٦/٣.

ثالثاً: العناية بمصالح الأمة الاقتصادية:

تعد مصالح الأمة الاقتصادية وطرق عيشها من أخطر الأمور، التي يترتب على الإمام الصالح العناية بها، فهي أمانته الكبيرة، التي يتوجب حفظها وعدم الخيانة فيها، كما أن هذا الأمر يحفظ للناس كرامتهم واعتبارهم. فكان ذلك محل عناية عمر ﷺ، الحقيقية؛ أعمل جهده فيها بحسن السياسة والتدبير.

وكانت أول هذه الأبواب أموال الغنائم التي تقاطرت عليه بكثرة، فشاور في ذلك أصحابه فأشاروا عليه بإنشاء الديوان، الذي يثبت فيه أسماء المقاتلين وعوائلهم وما يصلح لهم في عيشهم، ثم يضع أسساً لتوزيع هذا المال، وأشاروا عليه أن يبدأ بنفسه أولاً بوصفه أمير المؤمنين[1]، لكنه رفض ذلك منهم وقال: بل أضع نفسي حيث وضعها الله تعالى وأبدأ بآل رسول الله ﷺ[2] ثم وضع أسساً للتفاضل بين الناس تقوم على الصلة برسول الله ﷺ والسابقة في الإسلام وحسن البلاء والجهاد فيه، وقال: «لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه» فوافقه الصحابة على ذلك[3].

كان بوسعه اهتبال الفرصة، فالصحابة هم الذين أشاروا عليه أن يجعل نفسه على رأس هرم الغنائم، وبوسعه أن يقدر لنفسه ما يشاء، لكن ليس عمر ﷺ الذي يجعل مال الأمة مرتعاً له، فعمر ﷺ تحكمه قواعد عمل صارمة:

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/٦١٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢/٣٤٥.
(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٥٤٨.
(٣) أبو يوسف، الخراج، ص٤٢-٤٣.

الزهد والعفة والأمانة والعدل. هكذا أمن على نفسه بين يدي ربه الذي سيسأله عن كل درهم من مال هذه الأمة!

إذن فإن عمر ﷺ جعل العطاء على أساس المفاضلة على وفق الأسس التي ذكرناها، فلما وجد أن المفاضلة قد حققت أغراضها في كثير من الجوانب، ووجد أن المتأخرين في الالتحاق بالإسلام لم يعد يكفيهم عطاؤهم قرر العدول عن المفاضلة إلى التسوية، فقال: «والله لئن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ولأجعلنهم رجلاً واحداً»[1]، ففكره وهمه لا يستكين عند حالة ويستسلم لها، بل إنه دائم التفكر وتقليب الأمور على وجوه كثيرة ليرى أفضلها، متتبعاً كل المتغيرات ويتفاعل معها ليصل من خلالها إلى أفضل القرارات.

ومن الأمور التي عكست عمق تفكير عمر ﷺ، وأن له رؤية (استراتيجية) تجعله ثاقب البصر، وكأنه يُكشف له عن غطاء، وما ذاك إلا من فطنته وحسن إيمانه بربه وحسن طويته وصدقه في القيام بالأمر على أفضل ما ينفع أمته، تمثل ذلك في طريقة تعامله مع الأراضي المفتوحة، فقد أراد بعض الصحابة أن توزع عليهم هذه الأراضي بوصفها غنائم حرب، فقالوا: أقسم بيننا فيأنا، كما تُقسم غنيمة العسكر![2] غير أن عمر ﷺ لم يكن ليتسرع في اتخاذ قرار في واحدة من أكثر المسائل خطورة وأهمية يمكن أن يستمر أثرها

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢١٧/٣؛ أبو عبيدة، الأموال، ص٢٦٤.

(٢) ابن رجب الحنبلي، الاستخراج لأحكام الخراج، ص٥٩ ؛ الداوودي، الأموال، ص١١٥؛ ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص٧٦.

لزمن طويل. فشاور كثيراً، شاور المهاجرين من المسلمين، ثم شاور الأنصار بوصفهم زراعاً وأصحاب أراضي، ثم شاور علياً ﷺ، فتمخض كل ذلك عن رأي سديد يفيد بعدم قسمة الأرض بل تبقى بيد أصحابها على أن يجبى منهم الخراج ليكون في بيت مال المسلمين ينتفعون منه جميعاً، فلا تكون الأرض حكراً لفئة من دون عامة المسلمين[1].

وتقف وراء هذه السياسة حيثيات كثيرة، فإن توزيع الأرض سيحصر الفائدة بفئة محدودة من الناس وتحرم عامة المسلمين منها، ثم إن جباية خراج الأرض يوفر لبيت المال مورداً مهماً يدعم عمل جهاز الدولة والقيام بمصالح المسلمين والدفاع عن الأمة إزاء أخطار خارجية كانت تتفاقم بقوة؛ كما أن توزيع الأرض على المقاتلين سيحيلهم إلى فلاحين ومزارعين، في وقت كان الأمر لا يحتمل التخلي عن بضعة مقاتلين لشدة الحاجة إلى ذلك، فكيف إذا انشغل عامتهم بالأرض!

وهكذا فإن عمر ﷺ، لم يعطل بعمله هذا كتاب الله عز وجل، فهو بوصفه إماماً للمسلمين وجد نفسه أمام معضلة حقيقية ووجد نفسه أمام خيارات عدة، فالآية (٤١) من سورة الأنفال[2] تدعو إلى قسمة الغنائم، في حين أن الآيات (٧-١٠) من سورة الحشر[3] تتيح له التصرف على وفق

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢٢/١٨ ؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٥١/١؛ أبو يوسف، الخراج، ص٢٤.

(٢) ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ...﴾ (الأنفال:٤١).

(٣) ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ... وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر:٧-١٠).

ما فعل وقرر. وكل هذه الآيات محكمة وليست منسوخة، وللإمام أن يعمل بأي منها بحسب ما يمليه اجتهاده ونظره في الأمر[1].

ولم تنحصر مهمة عمر ﷺ الاقتصادية في جباية الأموال، بل لا بد من تثمير المصالح وتوسيعها، فهو وكيل الأمة على مالها، وهو ما يرتب عليه القيام بها خير قيام، فأعمل جهده في تنمية هذه المصالح. من ذلك أنه أمر أبا موسى الأشعري ﷺ أن يحفر لأهل البصرة نهراً طوله ثلاثة فراسخ (=١٨كم)[2]؛ وأمر عمرو بن العاص ﷺ بحفر قناة تربط نهر النيل بالبحر الأحمر، غير أن المشروع اندثر بعد عدة عقود[3]. وشجع على توسيع رقعة الأراضي الزراعية بتشجيع الناس على إحياء الأراضي الموات، أو استصلاح المغمورة بالمياه، فكتب إلى عماله: «أنه من أحيا مواتاً فهو أحق بها»[4]. وكان قراره المكمل لذلك أن من احتكر أرضاً ثلاث سنوات فلم يزرعها، فجاء غيره فعمرها، فهي له، وهو أحق بها[5]. من أجل أن تكون الأراضي للإفادة منها وليس لاحتكارها. وهكذا وجد عمر نفسه مضطراً لتطبيق مثل هذا القرار على بلال الحبشي مثلاً، فاستعاد منه مساحات من الأرض، وترك له ما يقدر على زراعته فقط[6].

---

(١) الداوودي، الأموال، ص١١٩.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٣٨.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤٦٠/٣.

(٤) ابن أبي شيبة، المصنف، ٤٣٥/١١.

(٥) يحيى بن آدم القرشي، الخراج، ص٩١.

(٦) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص٢١٤.

رابعاً: عمر ﷺ في مواجهة عام الرمادة:

في عام (١٨ هـ) أصاب الجفاف منطقة الحجاز، ودام ذلك تسعة أشهر، وسمي ذلك العام بعام الرمادة، لأن الريح كانت إذا هبت حملت معها تراباً كالرماد، أو لأن الأرض صارت سوداء كالرماد[١]. أجدبت البلاد، وهلكت الماشية، وجاع الناس وهلكوا، حتى كانوا يستفون الرمة، وبحثوا عن اليرابيع والجرذان لأكلها[٢]. إذن أصاب الناس الجهد والبلاء والجوع، وترك ذلك أثره على عمر ﷺ بيّناً حتى قال مولاه أسلم: «لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هماً بأمر المسلمين»[٣]، فقد فرض عمر ﷺ على نفسه برنامجاً صارماً، فعايش الناس في أزمتهم حتى لا ينسى ولو للحظة حالهم ومعاناتهم، فهو المسؤول عنهم جميعاً، وعلى عاتقه وحده يقع عبء معالجة أزمتهم هذه. بل إن الصرامة التي فرضها على نفسه شمل بها أهل بيته أيضاً، فقد كان لابنه عبيد الله بهيمة صغيرة، فذبحت وجعلت في التنور، فإذا رائحتها تداهم أنف عمر ﷺ، فقال: ما أظن أحداً من أهلي يجترئ عليّ، فأمر مولاه أسلم أن يستعلم الأمر، فلما علم أسلم الحقيقة، قال له عبيد الله: استرني سترك الله، قال أسلم: قد عرف حين أرسلني أن لن أكذب عليه، ثم ما كان من عمر ﷺ إلا أن منعها عنه وجعلها للمسلمين[٤]. ونبع ذلك من صدقه تجاه الأمة، إذ لابد

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/٢٢٣.
(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/٢٢٣.
(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/١٢٧.
(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/٢٢٦.

لأهله من أن يكونوا في الجَلَد والإيثار، وأن لا يكون هناك ما يميزهم من سائر الأمة في شيء من الامتيازات، فإذا وضعوا أنفسهم فوق الناس ومعاناتهم فإن ذلك ليس من الخلق الكريم وليس من دين الله في شيء.

ثم اتخذ بعدها سلسلة من الإجراءات لمعالجة هذه الأزمة تمثلت بالآتي:

١- تشكيل خلية أزمة ضمت عدداً من الأشخاص الأكفاء، ووزع بينهم الأعمال، ثم كانوا يلتقون بعمر ﷺ عند كل مساء لإطلاعه على ما قاموا به[(١)]. وهو ما عبر عن سعة أفق عمر ﷺ في التعاطي مع الأزمات الحادة، إذ لا يسع الفرد - مهما بلغ من الكفاءة - أن يتصدى بمفرده لهذه الأزمات، فلا بد من الاستعانة بالآخرين من أصحاب الكفاءة، ومن باب إشراك الأمة في قضاياها أيضاً.

٢- إطعام الناس مما هو متاح، فقد سارع عمر ﷺ إلى جمع ما أمكن جمعه من طعام من السوق المحلية والأسواق القريبة لإطعام الناس، ولا سيما الأعراب منهم الذين نزلوا أطراف المدينة[(٢)].

٣- الكتابة إلى الأقاليم بإمداده بالطعام، فقد كتب إلى عمرو بن العاص ﷺ عامله على مصر: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ...، سلام عليك، أما بعد، أفتراني هالكاً ومَن قِبَلي، وتعيش أنت ومَن قِبَلك، فيا غوثاه، ثلاثاً» فكتب إليه عمرو بن العاص ﷺ إنه سيغيثه بعدد من القوافل أولها في المدينة وآخرها في مصر[(٣)]. وكتب بمثل ذلك إلى الأقاليم الأخرى.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٢٨/٣.
(٢) الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ٢١١/٤-٢١٢.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٨٢/١ ؛ ابن شبة، أخبار المدينة المنورة، ٣٩٥/١.

٤- التآسي في العيش: ثم خطط عمر ﷺ لإجراء آخر وهو أن يجعل مع كل أهل بيت من أهل المدينة مثلهم من الأعراب إلى أن يفرج الله عنهم[(١)]. فيقتصد الجميع في العيش على أنصاف بطونهم «فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم»[(٢)].

٥-مراعاة ظروف الجفاف عند جباية الزكاة: فقد أخّر عمر ﷺ جباية الزكاة في عام الرمادة، فلما كانت السنة التالية، ورفع الله الجدب عن الناس، أرسل السعاة للجباية، وأمرهم بأخذ نصيبين من الزكاة، فيقسمون نصيباً ويأتوه بالآخر[(٣)]، ليكون ذلك احتياطياً عنده للحاجة.

٦- اتخاذ دار الدقيق: فقد أنشأ داراً لتخزين الدقيق والسويق والتمر والزبيب، وما يُحتاج إليه من طعام يمكن تخزينه إعانة للمنقطع وابن السبيل[(٤)].

٧- منع الاحتكار: فقد حاول بعض التجار استغلال هذا الظرف الطارئ من أجل التربح على حساب إخوانهم من المسلمين، فتصدى عمر ﷺ لذلك[(٥)]، وقال: «لا حُكْرَةَ فِي سُوقِنَا»، ومنع أصحاب الأموال من الاجتماع على بضاعة والمضاربة عليها دون سائر الناس، وقال: «لا يَعْمِدُ رِجَالٌ بِأَيْدِيهِمْ فُضُولٌ مِنْ أَذْهَابٍ إِلَى رِزْقٍ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ نَزَلَ بِسَاحَتِنَا فَيَحْتَكِرُونَهُ عَلَيْنَا، وَلَكِنْ أَيُّمَا جَالِبٍ جَلَبَ عَلَى عَمُودِ كَبِدِهِ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَذَلِكَ ضَيْفُ عُمَرَ، فَلْيَبِعْ كَيْفَ شَاءَ اللَّهُ، وَلْيُمْسِكْ كَيْفَ شَاءَ اللَّهُ»[(٦)]، وهو إذ يمنع

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣٢٨/٣.
(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٩٥/١٠.
(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٣٣/٣.
(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٢٦/٤.
(٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٥١/١.
(٦) الإمام مالك، الموطأ، كتاب البيوع.

الاحتكار، لكنه شجع الجالب، الذي يجلب بضاعته من خارج الإقليم للبيع بحريته، تنشيطاً للتجارة الخارجية وما فيها من فوائد كبيرة.

٨- الخروج إلى صلاة الاستسقاء: كما خرج عمر ﷺ ومعه صحابة رسول الله ﷺ إلى صلاة الاستسقاء وخرج معهم العباس ﷺ، فخطب وأوجز، ثم صلى، ثم جثى على ركبتيه وقال: «اللهم إياك نعبد، وإياك نستعين، اللهم أغفر لنا وارحمنا وارض عنا»[(١)] ثم انصرف، فما بلغوا منازلهم حتى خاضوا في الغدران.

وهكذا نجد عمر ﷺ يفكر بعمق، يخطط بأفق استراتيجي، يستشعر الأمور في كل جزئياتها، ولا يفوته العلاج الروحي، باللجوء إلى رب العزة، فهو المعبود لا سواه، المعطي بلا حدود، يوحّد ربه ويتوسل به إليه، فكانت الإغاثة والإجابة سريعة.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/٩٩.

الفصل الرابع
المنهجية في الإدارة

أولاً: رؤية عمر ﷺ للحكم ومسائله:

لم يرَ عمر ﷺ في نفسه ما يضعه فوق المسلمين، بل هو واحد منهم لا أكثر من ذلك ولا أقل، وكل ما في الأمر أنه مبتلى بتولي أمر الأمة وإدارة شؤونها على وفق شريعة الله تعالى. وقال في أول خطبة له بعد توليه الخلافة مبيناً مثل هذه الأمور: «... ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خُلقي شيئاً إن شاء الله، إنما العظمة لله عز وجل، وليس للعباد منها شيء، فلا يقولن أحد منكم: إن عمر تغير منذ ولي، أعقلُ الحق من نفسي وأتقدم، وأبين لكم أمري، فأيما رجل كانت له حاجة، أو ظُلم مظلمة، أو عتب علينا في خُلق، فليؤذنّي - أي فليخبرني - فإنما أنا رجل منكم، فعليكم بتقوى الله في سركم وعلانيتكم، وحرماتكم وأعراضكم واعطوا الحق من أنفسكم»[1].

هذا الإحساس الدائم بالمساواة، الذي لم يغادر مخيلة عمر ﷺ، المساواة بينه وبين الأمة، فيه جانبان: الأول أن عمر ﷺ خالف حكام الأرض، في كل

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢١٥/٤.

عصورها وأزمنتها، فما منهم واحد دام في الحكم كما دام عمر ﷺ أو أكثر إلا وانتابه ذلك الإحساس والشعور بأنه من طينة أخرى، غير طينة المحكومين، والذي لم يأت منهم بنظرية أسطورية تجعله في مصاف الآلهة، فإنه ادعى أن نسله من نسلها، ومن لم يقل ذلك منهم، فإن الشعوب راحت هي تقدسهم وتألههم، فالشعوب هي التي تصنع طغاتها، وهي التي تجعل منهم آلهة أو أنصاف آلهة، حتى تكاد تسجد لهم، والشرق على وجه الخصوص يحفل بالكثير من ذلك، قديمه وحديثه.

ويبدو أن هذا المنزلق الخطير وعاه عمر ﷺ منذ أول وهلة، ولا سيما أن المهابة التي كان عليها، ويستشعرها الناس عند أول مطالعتهم له، تهيئ الإحساس في النفس بتعظيمه، ولاسيما إذا تفاعلت هذه الحالة مع الشدة التي عُرف بها، ولو أنه تفاعل مع هذه الحالة، لغلا فيه الناس، ولانقادوا إلى فتنة تخرجهم من دينهم، لكنه أدرك خطورة ذلك، وأنه هو الذي نبه الأمة بأسرها، وساعده على ذلك يقظة الجيل الأول، الذي ضم كبار الصحابة، الذين كانت أعينهم متفتحة، ترصد أحوال الحاكم، تحاسبه على كل ما يبدر منه أو تلمس فيه مخالفة من نوع ما.

أما الجانب الثاني في هذه المسألة – أعني تعزيز الإحساس بالمساواة مع أفراد الأمة – فقد تناولته بعض الأقلام على أنه مزايا الخلافة في عقودها الأولى، وأن هذه المزية مستمدة من طبيعة العلاقة بين شيخ القبيلة وأفراد قبيلته عند العرب، تلك العلاقة التي قامت على المساواة والندية بين الطرفين، ومع صحة القول بهذه الندية والمساواة، لكن لماذا هذا التجريد لنظام الحكم في

الإسلام من أصوله الشرعية وإحالة مزاياه إلى عصر الجاهلية؛ فأي الأمرين أقوى حضوراً في ذهن عمر ﷺ وذاكرته؟ جاهلية مضى على هجره لها - يوم تسلم الخلافة - أكثر من ربع قرن، أم دين التصق به بقوة وعنفوان قل نظيره؟ ولا نقول عُدم نظيره، فبعض مزايا الجاهلية أقرها الإسلام، ثم أعاد صياغتها، وصياغة حيثياتها على أسس جديدة تعكس نظرة الإسلام إلى الحياة ومعانيها ومبانيها.

غير أن عمر ﷺ الذي أقر مبدأ المساواة بينه وبين الأمة وأبنائها، ما شأن علاقته بهم؟ وهل تعني هذه المساواة مجاراقم في أسواقهم، ومجالستهم في منتدياقم؟ هل هي أقوال عابرة؟ أم قوالب جامدة؟ أم أن لها أسساً ومعايير تحكمها؟ لا ريب في أن في الناس طبعاً ينزع نحو استحصال المكاسب، وربما سلكوا إليها الشرعي واللاشرعي من الوسائل، وهذا أمر استشعره عمر ﷺ، وربما عانى منه كثيراً، لذلك ينبغي له أن يكون (قوياً) في إحقاق الحق، حتى لا يغلبه أحد، فيضيع الحق، وتتظالم الناس. لقد نجح عمر ﷺ في أن يكون (قوياً) فلا يطمع فيه ظالم أو صاحب جاه أو متنفذ لينزع منه ما ليس له، فوصفه حذيفة بن اليمان ﷺ بقوله: «والله ما عرفت رجلاً لا تأخذه في الله لومة لائم إلا عمر»[1] .

وقد يوحي ذلك بأن عمر ﷺ لم يعرف في سلوكه سوى القوة والصرامة وشدة البأس، وإذا كان الأمر كذلك فإن له عواقبه الوخيمة، فهيمنة الشدة

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام.. عصر الخلافة الراشدة، ص٢٧١.

وحدها ظلم، وسيادة اللين وحده ظلم أيضاً، فليس كل الناس ينتفعون من قوة الحاكم وشدته، وليس كلهم ينتفعون من لينه ومرونته لوحدها، لذا فإن الحال الأنسب حتى يسود الحق والعدل هو المزاوجة بين القوة واللـين، فللـصرامة ظروفها وللين ظروفه، ولا يمكن استبدال أحدهما بالآخر في غير ظروفه، وذلك ما أدركه عمر ﷺ حقاً، فقال عنه: «إن هذا الأمر لا يصلح إلا بالشدة الـتي لاجبرية فيها، واللين الذي لا وهن فيه»[1]. وكان يدعو ربه أن يعينـه علـى ذلك: «اللهم إني شديد فليني، وإني ضعيف فقوني»[2]، فلما وجـد في أحـد عماله جفوة وشـده لا يمازجهما اللين عزله، فقد دخـل هذا العامـل علـى عمر ﷺ فوجده مستلقياً، وصبيانه يلعبون على بطنه، فتعجب من ذلك، فقال له: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت سكت الناطق، فقال: اعتزل، فإنك لا ترفق بأهلك وولدك، فكيف ترفق بأمة محمد؟![3].

لقد وجد عمر ﷺ أن من أعقد الأمور التي واجههـا أن يختـار الـولاة والعمال الذين يتولون معه إدارة شؤون الأمة. لقد كانت معايير عمر ﷺ صعبة في معالجة هذا الأمر، فقد سُئل مثلاً: ما يمنعك من استعمال أصحاب النبي ﷺ في الأعمال؟ قال: هم أجل من أن أدنسهـم في العمل[4]. فكون المرء صحابياً لا يعني بالضرورة كفـاءته في العمل السياسي والإداري. والخيريـة لا تعـني

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٥٠/٣.
(٢) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ١٢٤/١.
(٣) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٣١٣/٤.
(٤) الطرطوشي، سراج الملوك، ص١٤٣.

الخيرية الدينية لوحدها، بل لا بد من أن تمتزج فيهـا المؤهـلات الدينيـة والدنيوية. فإذا لم يمتلك الصحابي المؤهلات الدنيوية للعمل - الكفاءة - أخفق في عمله، فيناله من الأذى ما هو أرفع منه، هكذا كانت فلسفة عمـر ﷺ في هذه الناحية. فقد يستعمل الرجل ويدع خيراً منه من الناحية الدينية، ولكن فيه مزايا أخرى تؤهله: «إني لأستعمل الرجل وأدع خيراً منه، وذلك إني اسـتعمله لأن يكون أنقص عيباً، وأوسع رأياً، وأشد جـرأة، وأصـبر علـى الجـوع والعطش»[1]، فلقد كان صعباً عليه أن يستعمل الرجل وهو يجد ثمّ من هو خيراً منه وأكثر كفاءة[2].

إن الولايات العامة تكتنف على مسؤوليات خطيرة، لذلك لابـد لمـن يتولاها من مؤهلات وكفاءات، هي من حيث ارتباط العمل بمـصالح الأمـة، تتقدم في خطورتها على خيرية المرء في الدين، مع ملاحظة أن هذا لا يعني إهمال خيرية الدين، بل إن الأمر يتطلب منسوباً معقولاً من القيم والأحكام الـشرعية لا غنى عنها لكي يؤدي المرء عمله على الصورة المطلوبة، فإلى جانـب القـوة والكفاءة لا بد من التوافر على الأمانة والصدق في العمل.

وثمـة مشكلة واجهت عمر ﷺ، فقد وجـد أن أهل التقـوى والورع لا يتوافرون على مواصفات الكفاءة اللازمة في العمل، بل لا يتحمسون للعمل الحكومي، ووجد أن من هو أقل منهم ورعاً وتقوى أكثر حماسة لمثـل هـذا

---

(١) القرطبي، بهجة المجالس، ٣٤٥/١.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٢٠/٣.

العمل مع توافرهم على الكفاءات اللازمة، لذلك قال: «اللهم أشكو إليك جلَدَ الفاجر وعجز الثقة»[1].

إن التقي الورع إذا استبد به الخوف من الله، وجاوز فيه الحد المناسب، انتقل به الأمر من القوة إلى الضعف، ذلك لأن المرء إذا خاف الله عمل بموجب شرائعه وأحكامه، فيكون في ذلك قوة للأمة، غير أن بعضهم يستبد به هذا الخوف، فيتحول إلى السلبية، فيحجم عن العمل، ويمتنع عن الإقدام. وهذا هو ما كان يشتكي منه عمر ﷺ عند بحثه عن الكفاءة بين أهل التقوى والورع.

أمر آخر كان يبحث عنه عمر ﷺ فيمن يوليه: «لا يقيم أمر الله إلا مَن: لا يصانع، ولا يضارع، ولا يتبع المطامع، يكف عن غرته، ولا يكتم في الحق على حدته»[2]، وهي أمور تؤشر اجتماع القوة والكفاءة والأمانة والجرأة والصدق في دين الله.

وثَمّ أمر آخر كان يتحراه عمر ﷺ هو أن يكون أهل الولايات والعاملون فيها من أهل الحضر، فهؤلاء أصحاب الخبرة والتجربة، لهم اطلاع وانفتاح على التجارب والثقافات المختلفة، لهم القدرة على التفاعل، فيهم المرونة والانفتاح، لا يعملون بالجفوة والخشونة، فقد وفد عليه عتبة بن غزوان – وكان والياً على البصرة – فسأله عمر ﷺ: من استعملت على البصرة؟ قال: مجاشع ابن مسعود، فدهش وتعجب من صنيعه وقال: «تستعمل رجلاً من أهل الوبر على أهل المدر؟!»[3].

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١١٦/٢٨.
(2) المتقي الهندي، كنز العمال، ٣٠٥/٥.
(3) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥٩٥/٣؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٢١.

ولم يكن في منهج عمر ﷺ استعمال الموالي - المسلمون من غير العرب - ولاة على المدن والأقاليم، إلا إذا توافرت فيهم عناصر تمنحهم القوة والأفضلية، فقد وفد عليه عامله على مكة، فسأله: «مَنِ اسْتَخْلَفْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ قَالَ: اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْهِمُ ابْنَ أَبْزَى، قَالَ : وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ عُمَرُ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَاضٍ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَال: «**إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[1]، وكان له موقف مشابه مع عمرو بن العاص ﷺ أيضاً[2]. ويبدو أن عمر ﷺ كان يخشى ردة فعل إزاء الموالي قد تنبع من نظرة متعصبة لم تنطفئ جذوتها تماماً عند البعض.

وكان عمر ﷺ شديد المنع لتولية الرجل لاعتبارات غير موضوعية، فقال: «من استعمل رجلاً لمودة، أو لقرابة، لا يستعمله إلا لذلك، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»[3]؛ لأن هذا المسلك يعرض مصالح الأمة لموازنات ومساومات غير شرعية، وذلك ما يهدد بانتهاك مصالح هذه الأمة، ومن الطبيعي أن يدخل في هذا المعنى تولية أشخاص لاعتبارات حزبية أو طائفية أو مصلحية، بمعنى أن اختيار الأشخاص إذا لم يستند إلى الكفاءة والأمانة، إنما هو اختيار لا يستند إلى المقومات الشرعية، وهو ما يؤدي إلى خرق القاعدة

---

(١) الثعالبي، ثمار القلوب، ص١٩؛ البيهقي، شعب الإيمان، ٢/٥٤٩-٥٥٠.

(٢) المتقي الهندي، كنز العمال، ١٠/١١١.

(٣) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص٦٥.

الرصينة: الرجل المناسب في المكان المناسب، فالاعتبارات الفنية (التكنوقراط) تبقى الأساس الفاعل لحفظ سلامة العمل في الجهاز الحكومي.

ومن المواصفات الأخرى التي كان يبحث عنها عمر ﷺ عند توليته الأشخاص، أن يكون المرء قوي الشخصية يمتلك حضوراً مؤثراً، من غير أن يكون ذلك عن تصنع أو تكلف، بل يكون تلقائياً ولا يشوبه الاستعلاء، فهو «رجل إذا كان أميرهم، كان كأنه لم يكن أميرهم، وإذا لم يكن أميرهم، كان كأنه أميرهم»[1]، فهي «الكارزما» المؤثرة المحسوبة القدر، فإذا تجاوزت قدرها انقلبت إلى فتنة، وذلك ما فعله خالد بن الوليد ﷺ، لما وجد أن الناس كادوا يفتتنون به بما حققه من انتصارات، فأحب عمر ﷺ أن يعلم الناس أن الله تعالى هو الصانع لذلك وليس خالداً[2].

كل هذه المواصفات لم تمنع عمر ﷺ من دوام المتابعة والملاحقة، ولا سيما إن في الأمة مَن يحثه على ذلك ويطالب به، قال له رجل في طرقات المدينة: «ما أراك إلا تستعمل عمالك، وتعهد إليهم العهود، وترى أن ذلك أجزأك! كلا والله إنك المأخوذ بهم إن لم تتعهدهم»[3]، وليس ذلك بغريب، فعمر ﷺ هو الذي كان يدرب أمته على محاسبته ومراقبته.

ومن ناحية أخرى، فإن أبرز ما يميز منهج عمر ﷺ في الإدارة مركزيته الواضحة، التي دفعته إلى ملاحقة كل جزئيات العمل في الدولة المترامية الأطراف، وبما قد لا يخطر على البال من تفاصيل.

---

(١) القرطبي، بهجة المجالس، ١/٣٣٦ ؛ البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٢/٧٧.
(٢) ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ١/١٥٥.
(٣) ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ١/١٥٣.

لقد اجتهد عمر ﷺ بأن يتولى كل شيء بنفسه ما وسعه ذلك، لقد كان يحمل سجلات العطاء (بنفسه) ويذهب بها حيث تقيم القبائل ليوزع عليها العطاء (بنفسه)[1]، وكان يمر على الأسواق (بنفسه) مفتشاً ومطلعاً، آمراً وناهياً[2]، وتولى عمر ﷺ (بنفسه) تصميم مدينة الكوفة بعدما احترقت بسبب بنائها الذي كان من القصب[3]، هذا فضلاً عن صور سابقة مرت علينا مثل مداواته الإبل (بنفسه) وإطعامه للأعراب (بنفسه) في عام الرمادة، إلى غير ذلك من أمور قد لا يمكن حصرها باشرها عمر ﷺ (بنفسه).

ومما لاشك فيه أن هذه المركزية الشديدة شكلت في الوقت نفسه رقابة صارمة على عمل جهاز الدولة، فكأنك بهم يرون عمر ﷺ بدِرَّته وكامل هيبته، فكانوا يتحسبون لذلك تحسباً يدفعهم إلى التدقيق في أعمالهم خوفاً من أن يبلغه أنهم خالفوا أو قصّروا، فينالهم منه ما لا يسرهم، فكان في ذلك استقامة في عمل الدولة، فإذا كان للمركزية هذا الوجه الإيجابي، ترى ألم يكن لها وجه آخر؟

إن أبرز ما يمكن أن يؤخذ على مركزية عمر ﷺ هذه هو أن هذه العين الصارمة إذا ما غفلت أو غفت أو غابت، فكيف سيكون شأن الذين كانوا (يخشون) هذا الرقيب؟ قد تبدو الإجابة محرجة، ولكن الأمر الرئيس الذي يشكل مفتاح حل هذه المعضلة، أن عمر ﷺ كان يدرك خطر هذا الأمر لذلك

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢١٠/٤.

(٢) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص٦٦.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٩٧/٤.

وجدناه في مناسبات عـــدة يدرب الأمـــة على جرأة المحاسبة لولاة أمورهـــا، فإذا ما تمكنت الأمة من الإمساك بزمام أمرها، فإنها ستكون هي العين الرقيبة، وهذه العين لا تغفل ولا تغفو ولا تغيب، لأنها ليست عين رجل واحد، بل هي عين أمة بأسرها.

فضلاً عن أن عمر ﷺ لم يكن مختاراً بل كان مضطراً، فالدولـــة في أول عهدها، والواجبات لا حصر لها، زد على ذلك التحديات الخارجية القادمة من أكثر من جبهة فرضت على عمر ﷺ أن يعمد إلى بناء سلطة قوية متماسكة.

ثانياً: الشورى وآليات صنع القرار:

أولاً وقبل كل شيء لا بد من إثبات حقيقة أساســية مفادهـــا أن ســـر نجاح عمر ﷺ، وسر ما بلغه من نجاح وتفـــوق يعـــود إلى أخـــذه (الجـــدي) و(الواسع) بقاعدة الشورى، وإقامتها على كل جزئية من الجزئيات التي واجهته في إدارته البلاد.

ورب ســـائل يســـأل: لمـــاذا هـــذا اللجـــوء المستفيض إلى الشورى؟ أليس بين يدي عمر ﷺ كتاب الله وسُنّة رسوله، وفيهما الجواب الشافي عـــن كل ما يريد؟ فضلاً عن أن عمر ﷺ ليس ببعيد عن زمن النبي ﷺ، فليس ثمـــة متغيرات كثيرة. يمكن بيان ذلك كله من خلال المعطيات الآتية:

أولها: إن الشورى فريضـــة واجبـــة، وقاعدة من قواعد العمل الإسلامي لا بد منهـــا في كل شـــأن لقـــول الله تعـــالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران:١٥٩) و﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى:٣٨)، وأن الـــنبي ﷺ

على ما كان عليه من نزول الوحي لم يفتر عن المشاورة في الأمور كلها، وعليه فأحرى بخلفائه أن يقتدوا به في هذا الجانب وهم الذين لا يوحى لهم.

أما فيما يتعلق بالنص، فإن وجود النص لا يمنع من الشورى، فليست كل النصوص قطعية الثبوت أو قطعية الدلالة، وذلك ما يتطلب التحري والبحث والمشاورة، لذلك يمكن القول: إن عمر ﷺ قد اختار ما يمكن القول عنه: إنه اجتهاد جمعي مؤثراً إياه على الاجتهاد الفردي، سواء أكان ذلك في الأمور الشرعية أم في أمور الحياة الفنية، وصولاً إلى أفضل صيغ الفهم وأفضل القرارات والأحكام. وكانت لعمر ﷺ وسائل عديدة في التشاور، فهو استشار الناس تارة، واستشار مجالس الأنصار تارة، واستشار الأشخاص منفردين تارة ثالثة.

فكان إذا طرأ عليه طارئ رقى المنبر وجمع الناس من حوله ليطلعهم على ما طرأ من مستجدات، ثم بين لهم وجه المعضلة التي تواجهه، أو أنه بحاجة إلى إنضاج أفضل للقرارات، ثم يسمح لهم بعد ذلك بإبداء آرائهم، وربما تكلم رجل من عامة الناس، وربما كان المتكلم أحد وجوه الصحابة، رضي الله عنهم، وهو في ذلك كله يصغي ويسمع.

فلما خسر المسلمون معركة الجسر في العراق - وكانت قبل معركة القادسية - فلما بلغت عمر ﷺ الأخبار أمر المنادي أن ينادي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس إليه، فعرض عليهم الأمر، فسمع من الجميع، وكان الناس يقولون له: سر إلى العراق ونسير معك، إلا أن عمر ﷺ كان له رأي آخر، ولكنه كره أن يخالفهم، فأمرهم بالاستعداد إلا أن يأتي رأي أفضل من ذلك[1].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤٨٠/٣؛ المسعودي، مروج الذهب، ٣٠٩/٢.

وهكذا جمع الناس وشاورهم في الاستعداد لمعركة نهاوند[1]، فضلاً عن حالات أخرى عديدة جرت على هذا المنوال[2]، وهذه الطريقة تشبه إلى حد ما آليات الاستفتاء العام أو استطلاع الآراء التي تجرى اليوم.

وكان عمر ﷺ إذا أشكل عليه أمر جمع بعض الوجوه والصحابة يستشيرهم، فربما خص مشيخة قريش بالمشورة[3]، وربما خص المهاجرين بذلك[4]، وربما خص أهل بدر بالمشورة[5]، أو قد يخص الأنصار بالأمر، كما مر بنا بشأن الأراضي المفتوحة، وفي أحيان أخرى يخص القراء الذين كانوا أصحاب مجالسه ، كهولاً وشباباً[6].

وفي مرات أخرى كثيرة كان عمر ﷺ يستشير الأشخاص، ممن عرفوا بالتجربة والخبرة ورجاحة العقل، وكان علي ﷺ أبرز مستشاريه، حتى قال فيه: «أعوذ بالله من كل معضلة ليس لها أبو الحسن»[7]. كما كان ابن عباس، رضي الله عنهما، من مستشاريه البارزين أيضاً - على الرغم من حداثة سنه - حتى أنه لما مرض ولازم الفراش عاده وقال له: «أخَلَّ بنا مَرضُك،

---

(١) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٣٤.
(٢) الواقدي، فتوح الشام، ١/١٦٧، ١/٢٢٠.
(٣) المسعودي، مروج الذهب، ٢/٣٠٩.
(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٢٧؛ الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ٤/٥٧.
(٥) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي، ١/٣١١.
(٦) البخاري، صحيح البخاري، ٨/١٧٦؛ المالقي، الشهب اللامعة، ص ١٤٦؛ ابن مفلح، الآداب الشرعية، ٢/٢١٤-٢١٥.
(٧) ابن قتيبة، غريب الحديث، ٢/٦٤٩.

فالله المستعان!!»[1]. وممن خصه بالمشورة زيد بن ثابت ﷺ[2] كما استشار عمر ﷺ النساء ولا سيما عائشة، رضي الله عنها[3]، لما لها من علم وفضل وملازمة للنبي ﷺ.

إن من أهم الأمور التي تعكسها فلسفة الشورى كونها تعبر عن احترام الأمة، واحترام أهل الشأن فيها، فالاستبداد بالرأي يعكس نزعة تسلطية تظهر التفرد التام بالسلطة وإهمال الأمة بكل مكوناتها، وهذه مسألة فاقدة للاعتبارات الأخلاقية، في حين تجسد الشورى سلوكاً أخلاقياً عالي المستوى، فلا احتكار للسلطة، ولا ترفع على الأمة، ولا ازدراء لها، فالأمة أدرى بمصالحها وحقوقها من خلال النخبة التي تمثلها من أهل الحل والعقد.

أما المسائل التي شملتها شورى عمر ﷺ فتتمثل بالجوانب الآتية:

١- قضايا الإدارة العامة لشؤون الدولة مثل تعيين الولاة وعزلهم[4]؛ والتصرف بالأموال العامة[5]، إلى غير ذلك من الأمور.

٢- قضايا السلم والحرب، مثل الإجراءات المطلوبة إزاء المواقف الصعبة[6]، واختيار القادة[7]، وتوزيع الغنائم[8].

---

(١) الكاندهلوي، حياة الصحابة، ١٩٥/٣.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٦٩/٥.
(٣) المتقي الهندي، كنز العمال، ٢٣٠/٤.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٦٤/٤.
(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٢١/٣ ؛ الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ٦١٦/٣، ٢٠٩/٤؛ ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص٨٢.
(٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤٨٢/٣.
(٧) الذهبي، تاريخ الإسلام/ عصر الخلفاء الراشدين، ص ٢٢٥.
(٨) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢١/٤.

٣- الأحكام الشرعية، مثل الأمور المتعلقة بالحدود[١]، والتكبير على الجنائز[٢] والدية[٣]، إلى غير ذلك من الأمور.

ولأن الشورى أمر خطير يتعلق بمصير الأمة، لأنها تتناول قضايا مصيرية خطيرة، لذلك حرص عمر ﷺ في شوراه أن يستند فيها على مبادئ تجعل الشورى فعالة ومثمرة وتسلك بالمسلمين المسلك الصحيح، فربما سعى بعضهم إلى استشارة من ليس أهلاً للشورى بحثاً عن الرأي، الذي يريده هو أصلاً فيبحث عمن يعززه في نفسه، وهذا ما لا يمكن تسميته شورى، أما عمر، رضي الله عنه، فكان يبحث عمن يخاف الله تعالى أولاً فذلك أحرى أن يكون صادقاً ناصحاً في مشورته، فكان يقول: «شاور في أمرك من يخاف الله عز وجل»[٤].

وكان عمر ﷺ لا يحصر الشورى في كبار السن، بل كان يبحث عن الرأي الصحيح عند الأحداث أيضاً، وكان يقول مشجعاً الشباب على إبداء الرأي: «لا يمنع أحدكم حداثة سنه أن يشير برأيه، فإن العلم ليس على حداثة السن وقدمه، ولكن الله تعالى يضعه حيث يشاء»[٥]، لذلك

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢٨٨/٩؛ الدارقطني، سنن الدار قطني، ص٢٤٥.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، ٢٦٧/٧.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، ٢٩٩/١٢.

(٤) المالقي، الشهب اللامعة، ص١٥٠.

(٥) المتقي الهندي، كنز العمال، ١١١/١٠ ؛ المالقي، الشهب اللامعة، ص١٤٦.

كان يكثر من استشارة الشباب «يبتغي حدة عقولهم»[1]، أو لأنهم «أحدّ قلوباً»[2].

ولم يكن اختيار عمر ﷺ للرأي يستند إلى عدد أصحاب الرأي من حيث القلة والكثرة، بل يستند إلى قوة الدليل الذي يقدمه أصحاب كل رأي[3].

ثالثاً: منهجية عمر ﷺ في التعامل مع الولاة والعمال:

وجدنا في فقرات سابقة كيف أن عمر ﷺ كان يتحرى مواصفات ومقاييس معينة في بحثه عن العاملين في مؤسسات الدولة، فإذا ما توفر على عدد من هؤلاء ووضعهم في المكان المناسب بوصفهم الرجال المناسبين، فإن ذلك لم يكن عنده نهاية المطاف، إذ لا بد من إجراءات تضمن سلامة عملهم. وسار ذلك في اتجاهين؛ الاتجاه الأول ما عمله مع عماله عند تعيينهم، والاتجاه الثاني ما يتعلق بالإشراف على هؤلاء وهم في عملهم. أما ما يتعلق بالاتجاه الأول فقد كانت لعمر ﷺ الإجراءات الآتية:

- **وضع الشروط على العمال**: إذ تواترت الروايات التي أفادت أن عمر ﷺ كان إذا عين عاملاً وضع عليه الشروط (وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار) وكانت هذه الشروط تتضمن: ألا يركب مركباً فاخراً، ولا يتوسع في طعامه، ولا يلين في ملبسه، ولا يتخذ باباً دون حاجات

---

(١) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص١٤٤.
(٢) الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء، ٣/٣٢٣.
(٣) انظر مثلاً: الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ٤/٦١٦؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٥/٦٩.

الناس[1]. وعلى البساطة الظاهرة في الأمر، إلا أنه على درجة عالية من الأهمية من حيث إن هذه الشروط رسخت لعلاقة فاعلة بين هؤلاء الولاة ورعيتهم في الأقاليم، فعمر ﷺ أخذ عماله بما أخذ به نفسه في حياته وعيشه وتعامله مع رعيته، حتى يتحسس هؤلاء عظم الأمانة التي يتحملونها تجاه هذه الرعية.

ومما كان موضع ملاحظة عمر ﷺ أيضاً في شروطه على ولاته، أن لا يزاولوا أعمالاً خاصة في أثناء توليهم أعمالهم، فهم طوال مدة عملهم أجراء، والأجير لا يحل له مزاولة عمل في مدة أجرته[2]؛ كما كانت لعمر ﷺ أغراض أخرى من وراء هذا الشرط، منها أن يتفرغ الوالي كلياً لولايته، لا يشغله عنها شاغل، فإنه إن شُغل في أمر آخر – ولا سيما إذا كانت فيه مكاسب مادية – لا بد من أن يكون ذلك على حساب جوانب من انشغاله بولايته. كما إن مزاولة عمل آخر - ولا سيما إذا كان في ولايته نفسها - فإن ذلك سيقود لا محالة إلى تحقيق مكاسب خاصة باسم الولاية العامة، وهو ما يدعى اليوم بـ(التربح) من المنصب، فهو سيستغل منصبه ومكانته وعلاقته بما لا يجوز من الناحية الشرعية، فذلك استغلال للعام من أجل الخاص، وذلك أمر مرفوض أخلاقياً أيضاً. كما أن ذلك يتضمن أيضاً هضماً لحقوق الرعية إما خوفاً أو حياءً أو ظلماً، من أجل ذلك كله لم يجز عمر ﷺ لعماله ممارسة عمل آخر إلى جانب وجودهم في منصب الولاية.

---

(١) الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ٢٠٧/٤.

(٢) محمد رواس قلعه جي، موسوعة فقه عمر، ص ١٩.

- **توثيق الأموال والممتلكات**: كما عمد عمر ﷺ إلى توثيق ما للـــولاة والعمال من أموال عند تعيينهم[1]. ولنا أن نتصور أن ذلك شمل أموالهم المنقولة وغير المنقولة، وهو ما يشبه عملية كشف الحساب، وفي ذلك تنبيه لهؤلاء على أن أية زيادة (غير مشروعة) في أموالهم سوف تجعلهم تحت طائلة الحساب على وفق قاعدة: «من أين لك هذا»، التي يبدو أن عمر ﷺ أول من وضعها.

وصيته لعماله وولاته: فإذا ما تمت كل هذه الإجراءات، كان عمـــر ﷺ يماشي هؤلاء الولاة والعمال مسافة من الطريق مودعاً وموصياً، يوصي برعيته، ومُعرفاً بطبيعة العمل، ومذكراً بأمانة الله تعـــالى الثقيلة، ومن وصاياه هـــذه: «إِنِّي لَمْ أَسْتَعْمِلْكُمْ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى أَشْعَارِهِمْ، وَلا عَلَـــى أَبْـــشَارِهِمْ، إِنَّمَا اسْتَعْمَلْتُكُمْ عَلَيْهِمْ لِتُقِيمُوا بِهِمُ الصَّلاةَ، وَتَقْضُوا بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ، وَتَقْـــسِمُوا بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ، وَإِنِّي لَمْ أُسَلِّطْكُمْ عَلَى أَبْشَارِهِمْ وَلا عَلَى أَشْعَارِهِمْ، وَلا تَجْلِدُوا الْعَرَبَ فَتُذِلُّوهَا، وَلا تُجَمِّرُوهَا فَتَفْتِنُوهَا، وَلا تَغْفُلُوا عَنْهَا فَتَحْرِمُوهَا، جَـــرِّدُوا الْقُرْآنَ، وَأَقِلُّوا الرِّوَايَةَ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَنَا شَرِيكُكُمْ»[2].

فهذه دعوة لاحترام آدمية الإنسان وكرامته وحرمته في نفسه وفي حقوقه وفي عرضه وفي ماله. وتخصيصه العرب هنا لا ينطلق من عصبية بل لأن العرب كانوا مادة الإسلام الرئيسة في الذود عنه وحمل رسالته. أما تجمير المقاتلين، فهو تأكيد منه على ضرورة المراوحة بين المقاتلين مراعاة لحياتهم الاجتماعية بعـــدم إبقائهم في خطوط القتال لأوقات طويلة.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/٢٢١ ؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٥٧.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/٢٠٤.

- **تبصيره الأمة بحقوقها:** ثم كان يعمد بعد ذلك إلى تبصير الأمة بما لها وبما عليها. فوعي الأمة ضمانة مهمة لقوتها، وجهلها سبباً رئيساً في ضعفها، فمن يريد لأمته أن تكون قوية لابد من أن يحرص على توعيتها، وهذا ما كان يسعى عليه عمر ﷺ، فمن خطابه للأمة قوله: «إني لم استعمل عليكم عمالي ليضربوا أبشاركم، ويشتموا أعراضكم، ويأخذوا أموالكم، ولكن استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسُنّة نبيكم، فمن ظلمه عامله مظلمة، فلا إذن له عليّ ليرفعها إليّ حتى أقصه منه؟ فقال: عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين! أرأيت إن أدّب أمير رجلاً من رعيته، أتقصه منه؟ فقال: وما لي لا أقصه منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه»[1].

فهنا نجد أن عمر ﷺ قد وضع أمته أمام حقوقها حتى لا تخضع للابتزاز أو الاستغفال من أحد العمال أو الولاة، كما أنه كشف عن سطوته بهؤلاء إن هم نالوا شيئاً من حقوق الأمة. لقد كانت هذه من عمر ﷺ التفاتات مبكرة كشفت عن عمق بصيرته بما يعرف اليوم بحقوق الإنسان، فقد جاء بها الإسلام كمبادئ، ثم جاءت عبقرية عمر ﷺ لتحيلها إلى سياقات عملية في بنية الدولة والأمة.

أما الجانب الآخر فتمثل بإجراءات عمر ﷺ تجاه الولاة بعد تعيينهم، إذ عمد إلى الإجراءات الآتية:

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٠١/٣ ؛ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٧٢/٢٨.

- **تطوير آليات عمل الولاة:** إذ كان عمر ﷺ يرسم لهؤلاء آليات عمل تجعلهم أكثر قدرة على تحقيق مصالح الأمة، فكان يحثهم على الحلم، من ذلك مثلاً: إنّ «لَكُمْ مَعْشَرَ الْوِلاةِ حَقًّا فِي الرَّعِيَّةِ، وَلَهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِلْمٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ وَلا أَعَمَّ نَفْعًا مِنْ حِلْمِ إِمَامٍ وَرِفْقِهِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ جَهْلٌ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ وَلا أَعَمَّ ضَرًّا مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخُرْقِهِ، وَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبِ الْعَافِيَةَ فِيمَنْ هُوَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ يُنْزِلِ اللَّهُ عَلَيْهِ الْعَافِيَةَ مِنْ فَوْقِهِ»[1]. ومثال آخر يتعلق بضرورة مراعاة وجوه القوم: «إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ لِلنَّاسِ وُجُوهٌ يَرْفَعُونَ حَوَائِجَ النَّاسِ، فَأَكْرِمُوا وُجُوهَ النَّاسِ، فإنه بِحَسْبِ الْمُسْلِمِ الضَّعِيفِ أَنْ يُنْصَفَ فِي الْحُكْمِ وَالْقِسْمَةِ»[2]. فوجوه القوم - عند من لم يجد وسيلة مباشرة - هم أداة مهمة لإنقاذ حقوقهم في الكثير من الجوانب، لذلك فإن إكرام هؤلاء الوجوه، هو في أحد جوانبه، من أجل هؤلاء الضعفاء.

- **المتابعة المباشرة لبعض الولاة:** فقد كان لعمر ﷺ متابعاته المباشرة والخاصة لبعض الولاة، من ذلك كتابه إلى عمرو بن العاص ﷺ مستفهماً عما تجمع عنده من مال خاص، كيف كثر ومن أين جاء؟ ومما جاء في الكتاب: «أما بعد، فإنه بلغني أنك فشت لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد، وعهدي بك قبل ذلك أن لا مال لك، فاكتب إليّ: من أين أصل هذا المال، ولا تكتمه»[3]؛ ويكشف هذا أن لعمر ﷺ عيوناً بثها في الولايات

---

(١) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص ٩٢.
(٢) وكيع، أخبار القضاة، ١/٢٨٥.
(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١/٤٦.

والأقاليم تكتب إليه بأخبار الناس والولاة والجند وما إلى ذلك، حتى يبدو وكأنه يشاهد بعينيه، وهذا جانب مهم في المتابعة والملاحظة للعمال والولاة حتى لا يشتط بهم الأمر ويظنوا أنهم في مأمن فتزل أقدامهم.

- **دوام النصيحة والوصية**: فكان عمر ﷺ يديم على عماله وولاته النصيحة والوصية مذكراً ومنبهاً، فقد كتب إليهم مثلاً: «إن للناس نفرة من سلطانهم، فأعوذ بالله أن تدركني وإياكم ضغائن محمولة، ودنيا مؤثرة، وأهواء متبعة، وأنه ستدعى القبائل، وذلك نخوة من الشيطان، فإن كان كذلك فالسيف السيف...»[1]؛ وكتب إلى عمرو بن العاص ﷺ: «كن لرعيتك ما تحب أن يكون لك أميرك»[2]؛ وكتب إلى أبي موسى ﷺ: «اعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، وأعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عندك»[3]؛ ومثل هذه الرسائل كان كثيراً، وهي أشبه ببرنامج عمل يرسمه لولاته، محوره الرئيس حقوق الأمة وكيفية أدائها والحفاظ عليها.

- **رسائل فقهية**: كان عمر ﷺ يتابع عماله ويكاتبهم في شؤون الفقه كافة، مبيناً لهم ما يجب من أحكام في أمور كثيرة؛ لأن هؤلاء سيؤدون بدورهم إلى رعيتهم مثل هذه التوجيهات، تأشيراً للجانب الدعوي في وظيفة الدولة الإسلامية. فمما كتبه إلى عماله ما يتعلق بصلاة الصبح وما يُقرأ فيها

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، ٥٩/٢١-٦٠.
(٢) الطرطوشي، سراج الملوك، ص١١٣؛ العاملي الأندلسي، رونق التحبير، ص١٥٨.
(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٣٢/١.

على موجب سُنّة النبي ﷺ[1]؛ وكذلك ما يُقرأ في سواها من صلوات. وكتب إليهم في مسائل النكاح بالذميات[2]؛ ومسائل البيوع والأرزاق والمكاييـــل[3]؛ وزكاة الفضة[4]. وهذه نماذج لما كان يتابعه مع عمله لـــيحفظ مـــن خلالهـــم وظيفة الدولة الدعوية، وليؤدي هؤلاء دورهم في هذا السياق أيضاً.

رابعاً: عمر ﷺ بين رعيته وولاته:

لا بد لمعطيات الحياة اليومية من أن تنكشف عن عدد من المشكلات بين الرعية وولاتها، إذ لا يمكن افتراض ديمومة علاقة من الرضـــى والقبـــول بـــين الطرفين على طول الخط، فمهما كانت الأجواء مثالية فلا يمكـــن للحـــالات السلبية أن تنتفي، فقد جبل البشر على طباع شتى، وكل واحد منها يجد لنفسه مرتعاً خصباً، وأية حـــالة سلبية تطفو على سطح العـــلاقة بين الرعية والولاة إنما هي انعكاس لظلم أو تعد وقع من الولاة، فمن النادر أن تجتمع الرعية على ظلم واليها. لذا فإن عمر ﷺ يجد نفسه أمام حالة تستدعي التحري والمعالجـــة من دون إبطاء. لا بل إن هذه العلاقة بين الطرفين - الرعية والولاة - كانـــت شغله الشاغل على الدوام، فالرعية هناك بعيدة عنه وليست تحت إشرافه المباشر، والولاة من جانبهم هم من البشر، ليس هناك ما يعصمهم من الزلل إلا الله تعالى وحده، فما هي منهجية عمر ﷺ في تعامله مع هذا الأمر؟

---

(١) الترمذي، سنن الترمذي (٣٠٦) قال الشيخ الألباني: صحيح.
(٢) عبد الرزاق، المصنف، ٧٨/٦-٧٩.
(٣) ابن حزم، المحلى، ٢٧٠/٩.
(٤) ابن حزم، المحلى، ٣٥/٦.

تمثل الإجراء الأول لعمر ﷺ في هذا الجانب في عقد مؤتمر سنوي لعماله، فقد كان من سُنّته أن يوافيه هؤلاء في موسم الحج للاجتماع بهم ومدارسة أحوال الأمة وما تحتاجه من سياسات[1]، وليكون هذا المؤتمر شعاراً معروفاً عند جماهير الأمة، فمن كانت له عند واليه مظلمة وافى هو أيضاً في الموسم ليعرض مظلمته، من غير أن يعني ذلك أن أبواب عمر ﷺ كانت موصدة في أيام العام الأخرى، وهكذا كان يجمع بين الأطراف كلها للفصل في مظالمها[2].

الأمر الثاني الذي كان يعمد إليه عمر ﷺ إذا جاءته شكاة تجاه عامل من عماله هو تحري الأمر ميدانياً وعن كثب، معتمداً أوثق رجاله وأكفأهم وأكثرهم جرأة على اقتحام المصاعب، فكان محمد بن مسلمة ﷺ رجل هذه المهمات، فهو «صاحب العمال الذي يقتص مَنْ شكي زمن عمر»[3]، بل إنه كان لا يكتفي به في بعض الأحيان، بل يرسل رجالاً آخرين للتحري والسؤال على أوسع نطاق ممكن[4]، لتحقيق الاستقراء المناسب الذي يفضي إلى قرار عادل.

ثم إنه كان يعمد إلى الجمع بين عماله ومن اشتكاهم، فإن صح عليهم أمر أخذهم به[5]، إذ يقضي المنطق العادل عدم الإصغاء إلى طرف من دون الطرف

---

(١) ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، ٢/١٥.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/١٥٥، ٤/١٦٥.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/١٢١.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٤١ ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ٤/٢٢٩.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/٢٠٤.

الآخر، بما يتيح للمتهم الدفاع عن نفسه، ولتعجيل العقوبة عليه إذا ثبت ظلمه لصاحب الشكوى، فقد كان من سياسته تعجيل العقوبة لردع الآخرين عن الوقوع في ظلم الرعية، كما أن ذلك يعزز ثقة المواطن بالدولة تلك الثقة اللازمة والضرورية لبناء علاقات تواصل سليمة بين الطرفين. وفقدان ثقة المواطن بالدولة قد تحيله إلى آليات أخرى في استحصال حقه يمكن أن ينجم عنها فوضى وفساد الأحوال التي تجر عاقبة وخيمة على الجميع.

وقد تقدمت الإشارة إلى نماذج من الشكايات قدمها مواطنون إلى عمر ﷺ، فتعامل معها على وفق المنهج المتقدم ذكره. ومن الشكايات التي بلغته أيضاً أن أبا موسى الأشعري ﷺ كان يجلس في بيته للقضاء بين الناس ولا يجلس في المسجد، فأرسل عمر ﷺ من يتحرى الأمر، وأمر – إذا تبينت حقيقة الدعوة – أن يحرق عليه باب بيته، ثم يجلسه في المسجد للقضاء، ففعل الرسول ما أُمر به[1]. وهكذا يبدو أيضاً أن عمر ﷺ كان حازماً وصارماً في عقوبته لعماله ليكون ذلك رادعاً قوياً يمنع وقوع المظالم.

وثمة مسألة تبرز في الإطار العام لتعامل عمر ﷺ مع الشكاوى المقدمة إليه، وهي أنه كان يعطي للرعية من الأهمية والمكانة أكثر مما يعطيه لعماله وولاته، حتى بلغ الأمر حد الاقتصاص منهم أمام الرعية، لولا العفو الذي يتغلب أحياناً في اللحظات الأخيرة من المشهد، إذ يعفو المشتكي عمن ظلمه، فقال بعض الدارسين: «إنه كان يبالغ في حفظ حقوق الناس، ويعطيهم أكثر

---

(١) ابن العطار، كتاب الوثائق والسجلات، ص ٤٩٢.

مما لهم على حساب الولاة»، ثم أضاف: «وأنا لا أستطيع أن أكتم رأيي في هذه الخطة، وأنها خطة خطرة لأنها تضعف سلطان الولاة، وتجمع السلطة كلها في يد واحدة، و لم يظهر خطرها على عهد عمر، لأنه كان في قوته وعبقريته من فلتات الدهر، ولكن ظهر هذا الخطر لما ولي الخلافة من هو أقل قوة وعبقرية من عمر، فتسلط الناس، وقوي أهل الشغب»[1].

لاشك في أن تعليقاً من هذا النوع شديد الأهمية والخطورة، فهذا التعليق على الرغم مما يبدو فيه من عقلانية، غير أن ما يجب تقريره أيضاً أن في سياسة عمر ﷺ هذه ما يشكل حاجزاً وقائياً يمنع الولاة من الانزلاق إلى هاوية الظلم والعدوان، فلا يقعوا عندها تحت طائلة الاقتصاص الذي كان يصر عليه عمر ﷺ. فالخلل إذن ليس في سياسة عمر ﷺ، بل فيمن تحدثه نفسه في الانجرار نحو الظلم.

ومن ناحية أخرى فإنه ليس من المناسب أن يتراجع الحاكم عن سياسة يراها مناسبة لتحقيق العدل والمصلحة في الأمة، وهي كذلك، خوفاً من أن يأتي آخر بعده لا يستطيع النهوض بمثل هذه السياسة، فماذا يعني ذلك من الناحية العملية، يعني ذلك ببساطة الآتي: إن الناس قد عهدوا في عمر ﷺ شخصاً قوياً له نفوذ وسطوة، فإن تراخى قليلاً طمع الناس فيه، من الولاة والعمال وغيرهم من سواد الرعية، فإذا جاء بعده من لم يكن بقوته، كان طمع الناس فيه أكبر، إذ سيقول هؤلاء: إذا كان القوي متراخياً، فكيف سيكون حال من ليس

---

(١) علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، أخبار عمر، ص١٧٦.

بقوته؟! وعليه فإن المشكلة لا تكمن في القوي وسياساته، بل إنما تكمن في من لم يكن قوياً كعمر ﷺ!

خامساً: محاسبة عمر ﷺ لولاته وعماله:

شهد عصر عمر ﷺ تحولات كبيرة أصابت بنية الدولة والأمة، فقد شهد عصره انسياح جيوش المسلمين في كل الاتجاهات، محققة انتصارات متعاقبة، أزالت من الوجود إمبراطورية الفرس الساسانيين، وقزّمت إلى حد كبير إمبراطورية الروم البيزنطيين، فاتسعت رقعة الدولة كثيراً، وانثالت الأموال على المسلمين من كل حدب وصوب، حتى كان يصعب عليهم حسابها، وبقدر ما كان ذلك باباً من أبواب الخير والنعمة، لكنه كان في الوقت نفسه باباً من أبواب الفتنة، فليس كل أحد قادر على أن يعصم نفسه ويصونها من أن تمتد يده إلى هذا المال من غير وجه حق. ولكن كان بوسع عمر ﷺ أن يحاسب هؤلاء ليأخذ منهم حق الأمة، الذي زاغوا فيه. واقتضى ذلك من عمر ﷺ أن يبث عيونه يترصدون أية مخالفة أو خلل في عمل هؤلاء الولاة والعمال، حتى كان علمه بمن نأى عنه كعلمه بمن بات معه على مهاد واحد؛ فكانت هذه العيون تأتيه بالأخبار أولاً بأول[1]، قال الطبري عنه: «كان لا يخفى عليه شيء في عمله»[2]، ويعني هذا أن عمر ﷺ لم يركن إلى ثقته المبدئية بعماله على أهمية هذه الثقة، ولكن لا بد أيضاً من تحري ما يفرزه الواقع من معطيات عملية.

---

(١) الجاحظ، التاج، ص١٦٨.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/٦٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢/٣٦٨.

كما كان عمر ﷺ يدرس – من ناحية أخرى – ما يطرأ على حياة الولاة والعمال من تغيرات، فكان يقول: «لي على كل خائن أمينان: الماء والطين»[1]، فمن كثر بنيانه وزرعه من العمال، احتسب أن ذلك كان من الخيانة في المال، فلما مرّ ببيت عالٍ قال: «أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها»[2].

ثم إن الماء والطين وحدهما لا يكفيان في تحري الأمر، فكان لابد من البحث عما استتر وخفي، فكان يدخل بيوت عماله متنكراً بعد الاستئذان فينظر حواليه عما يجده من متغيرات في حياتهم، وهكذا دخل بيت خالد بن الوليد ﷺ، فلم يجد ما يستحق محاسبته عليه[3]؛ وربما رصد أحدهم في الطريق عائداً من ولايته، فيفاجئه هناك ليرى ما عنده قبل دخوله بيته[4].

هنا عمد عمر ﷺ إلى مصادرة العمال أو مشاطرتهم مالهم إذا أحس أن في هذا المال حقاً للأمة، وأمثلة ذلك كثيرة، منها مثلاً: مصادرته الحارث ابن كعب بن وهب بعد أن سأله عن إبل وعبيد باعهم بمائتي دينار؟ فقال الحارث: خرجت بنفقة معي فاتجرت بها، فقال عمر ﷺ: أما والله ما بعثناكم لتتجروا في أموال المسلمين! فصادره عليها[5]. وكان قد استعمل عتبة بن أبي سفيان،

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ١/١١٦؛ أبو طالب المكي، قوت القلوب، ١/٥٨٠.
(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ١/١١٦ ؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١/٤٤.
(٣) ابن شبة، تأريخ المدينة المنورة، ٢/٣٢-٣٣.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١/٤٩.
(٥) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص٦٢٤-٦٢٥.

فكان لما عزله تلقاه في طريق عودته، فوجد معه ثلاثين ألفاً! فقال له: أنى لك هذا؟! قال: والله ما هو لك ولا للمسلمين، ولكن مال خرجت به لضيعة اشتريتها، فقال عمر: عاملنا وجدنا معه مالاً ما سبيله إلا بيت المال، فصادره عليه أيضاً[1].

وقد يبدو غريباً سلوك عمر ﷺ في تعامله مع ولاته بهذه الطريقة، من حيث طريقة الملاحقة والمتابعة، ومن حيث المصادرة والمشاطرة، ولكن لابد من القول هنا: أولاً، إن عبء الأمانة ثقيل جداً، لا يجوز التهاون فيه ولو بمقدار ذرة، فإن الله تعالى يحاسب على مثل هذه الموازين. ومن ناحية أخرى فإن مَن لم يحاسب عماله وولاته على أعمالهم! إنما هو واحد من هؤلاء: فهو إما لا يأبه لذلك ولا يوليه عنايته، وبالتالي فإنه لا يحسن تقدير العبء الذي يحمله وما سيسأله الله تعالى عنه، ومثل هذا قد أصابته الغفلة! وإما أن يكون قد استكان إلى الثقة وحدها، وغلب عليه حسن الظن، وهذا أيضاً من الغفلة! وإما أن يكون شريكاً في الإثم والخيانة، ومثل هذا لا يجرؤ على محاسبة عماله وولاته على ما قد اقترف مثلهم، فيكون قد وقع في الخيانة!

وعمر ﷺ لم يكن كمثل هؤلاء أبداً، فهو وإن لم يكن (خباً) إلا أن (الخب) لا يغلبه، ولا تنطلي عليه حيلته، فهو في الفطنة والنباهة والفراسة ما لا يسهل على أحد أن يغلبه، كما أنه كان زاهداً ورعاً بما أبعده كثيراً عن

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٤٩/١.

الولوغ في أموال المسلمين؛ فإذا كان هو كذلك فلم لا يحاسب عماله؟ أما الشدة في ذلك فقد وجدها لازمة لتحقيق الردع المطلوب منها.

هذا ومن جانب آخر، فإن ما كان يشغل عمر ﷺ في ولاته ليست شؤون المال وحدها، بل إن المال هو أهون الأمور، فلطالما كانت الرعية شغله الشاغل، لذلك فإنه كان يتتبع عماله وولاته فيما يخص سيرتهم في رعيتهم، هل كانوا يحسنون السير فيهم؟ هل كانوا يرفقون بهم؟ وما إلى ذلك من أمور، وكان يتحرى مثل هذه الأمور بالوسائل التي سبق ذكرها؛ إما عن طريق الوفود القادمة إليه من الأقاليم، أو عن طريق العيون الذين بثهم هناك، أو بالمتابعة الشخصية من خلال الزيارات والرحلات إلى هذه الأقاليم، أو من خلال استقدام الولاة والعمال إلى حاضرة الخلافة.

فقد استدعى أبا موسى الأشعري ﷺ ومعه عماله، فلما مثلوا أمامه، صار يتفحصهم بعينين ثاقبتين، مدققاً في أحوالهم، ثم راح يستجوبهم عن تفاصيل عملهم[1]؛ وكان يعمد إلى الوافدين عليه من الأنحاء يسألهم عن ولاتهم وعمالهم، فإن قالوا خيراً، يسألهم: هل يعودون مرضاكم؟ فإن قالوا: نعم، سألهم: وهل يعودون عبيدكم؟ فإن قالوا: نعم، سألهم: كيف صنيعهم بالضعفاء؟ وهكذا يتحرى جزئيات العمل[2].

---

(١) ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ١/١٥١-١٥٢.
(٢) الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ٤/٢٢٦.

ولما قَدِمَ عليه جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، سأله عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ تَرَكْتَ سَعْدًا فِي وِلايَتِهِ؟ فَقَالَ: تَرَكْتُهُ أَكْرَمَ النَّاسِ مَقْدِرَةً، وَأَحْسَنَهُمْ مَعْذِرَةً، هُوَ لَهُمْ كَالأُمِّ الْبَرَّةِ، يَجْمَعُ لَهُمْ كَمَا تُجْمَعُ الذَّرَّةُ -أي النملة-، مَعَ أَنَّهُ مَيْمُونُ الأَثَرِ، مَرْزُوقُ الظَّفَرِ، أَشَدُّ النَّاسِ عِنْدَ الْبَأْسِ، وَأَحَبُّ قُرَيْشٍ إِلَى النَّاسِ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ حَالِ النَّاسِ؟

قَالَ: هَمْ كَسِهَامِ الْجَعْبَةِ، مِنْهَا الْقَائِمُ الرَّائِشُ - أي الجيد -، وَمِنْهَا الْعَضِلُ الطَّائِشُ - أي الرديء-، وَابْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ثِقَافُهَا يَغْمِزُ عَضِلَهَا، وَيُقِيمُ مَيْلَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالسَّرَائِرِ يَا عُمَرُ.

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ إِسْلامِهِمْ؟

قَالَ: يُقِيمُونَ الصَّلاةَ لأَوْقَاتِهَا، وَيُؤْتُونَ الطَّاعَةَ لِوُلاتِهَا»[1].

ومما لا ريب فيه، وهو ظاهر مشهور عن عمر ﷺ وعصره، أن هذه المتابعة الصارمة والحازمة والدؤوبة قد آتت أكلها، من غير زعم أن ذلك كان مطلقاً، فالعدل كان فاشياً، والمساواة كانت أساساً للحكم في الرعية، وأن أداء الحقوق إلى أصحابها قد أخذ منواله الدائب، حتى أصبح عمر ﷺ شعاراً للحق والعدل والمساواة والاهتمام بكرامة الإنسان وآدميته.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن عمر ﷺ كان يلجأ إلى عزل عماله وإقصائهم عن العمل إذا ما وجد فيهم الخلة التي توجب ذلك، ضماناً لسلامة

---

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ١/٢٣٩.

العمل، وصيانة لحقوق الأمة، وفوق كل ذلك حفظاً لدين الله تعالى. وكانت الأسباب التي توجب العزل عند عمر ﷺ هي:

- **ضعف العامل:** فقد عزل رجالاً لضعفهم في مواقع القيادة، كانوا من أهل الصلاح والورع، إلا أن قدرتهم على قيادة الناس والأخذ بزمامهم كانت شيئاً آخر، فعزل عمار بن ياسر ﷺ عن الكوفة لأن أهلها استضعفوه، وعلى هذا المنوال عزل كل من أبي هريرة وشرحبيل بن حسنة، رضي الله عنهما[1].

- **القوة الفائقة:** وعلى الضد من ذلك، فإن القوة الفائقة في العامل قد تكون سبباً لعزله أيضاً، فقد عزل رجالاً أقوياء، لا شائبة تشوبهم فيما يتعلق بدينهم وأمانتهم، كما هو الحال مع خالد بن الوليد ﷺ، فقد صرح عمر ﷺ بقوله: «إني لم أعزل خالد عن سخطة، ولا عن خيانة، ولكن الناس فُتنوا به، فخفت أن يوكلوا إليه ويُبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة»[2]، فإن (الكارزما) التي امتلكها خالد ﷺ قد تتحول إلى أمر آخر لا تحمد عقباه، ولاسيما إن عمر ﷺ كان يميل إلى الموازنة في الأمور من غير إفراط ولا تفريط. ومثال آخر قريب من ذلك، إذ عزل زياد بن أبيه عن عمله، فلما وجد زياد أن الأمر قد يدفع إلى سوء الظن به، طمأنه عمر بقوله: «ما عزلناك لخزية، ولكني كرهت أن أحمل على الناس فضل عقلك»[3].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/٦٤-٦٥ ؛ الداؤودي، الأموال، ص١٩٦-١٩٧.
(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، ١٨/٣١٩-٣٢٠.
(٣) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٢/٥٢٤.

- **سوء السيرة في الناس**: فكان إذا بلغ عمر ﷺ أن عاملاً لا يرفق برعيته، عزله[1]؛ لأنه يكون قد أخفق في إقامة مفهوم (الرعوية) على حقيقته، وهو ما يؤدي إلى استئثار العامل بسلطانه، فيجعل من عمله نجعة ينتجع بها، متربحاً على حساب رعيته.

- **عدم الالتزام بالقرارات المركزية**: فذلك ما يؤدي إلى ضعف وحدة السلطة وتماسكها، وربما هدد بالتمرد والعصيان، مهما كانت النيات التي تقف وراء ذلك، فهذا العلاء بن الحضرمي، كان عاملاً على البحرين، فقرر عبور البحر إلى بلاد فارس، من غير مشاورة عمر ﷺ في الأمر، مع علمه المسبق أن عمر ﷺ كان لا يزال يرفض مثل هذه (المغامرة) فجازف العلاء بالأمر، وكانت المغامرة خطيرة فعلاً لولا تدارك الأمر، فقرر عمر ﷺ عزله، ثم تبعه بما هو أمرّ من ذلك إذ ألحقه بسعد بن أبي وقاص، وكانت بينهما منافسة[2].

- **مخالفة الأحكام الشرعية**: لم يبلغ المسلمون ما بلغوه من مجد عريض إلا بالتزامهم شريعة الله تعالى وأحكامه وسُنّة نبيه ﷺ، لذا فإن مخالفة هذه الجوانب تنذر بانفراط العقد الذي سلكته لهم الشريعة، فإذا تم التغاضي عن ذلك اتسع مداه، وعظم خطره، فكان ذلك بالنسبة لعمر ﷺ كافياً لاتخاذ إجراءات صارمة، فلما بعث إليه عتبة بن فرقد أربعين ألف

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص١١٧.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٧٩/٤ وما بعدها.

درهم عن عشور الخمر، التي كان يتاجر بها أهل الذمة أو تجار دار الحرب، أثار ذلك غضب عمر ﷺ، وقال له: والله لا أستعملك على شيء بعدها، فعزله[1].

- قلة الرحمة: فقد عزل من لم يجد في قلبه رحمة، إذ دخل عليه عامل من عماله، فإذا عمر ﷺ يقبل أحد أولاده، فقال الرجل: أتقبل هذا يا أمير المؤمنين، فو الله ما قبلت ولداً قط؟! فقال عمر ﷺ: فأنت والله بأولاد الناس أقل رحمة، فرد عهده و لم يُوله[2]؛ لأن فلسفة الحكم في الإسلام تقوم على الرعوية والإدارة لا على (السلطوية). ولعل الرحمة من أبرز معالم فلسفة الإسلام في الحكم، فإذا غابت لم يعد الحكم مستوفياً لشروطه الإسلامية.

---

(١) ابن القيم، أحكام أهل الذمة، ص٥٨.

(٢) وكيع، كتاب الزهد، ٣/٨١٤.

الفصل الخامس
أخلاقيات الحرب

أولاً: أخلاقيات تعامل عمر ﷺ مع المجاهدين في سبيل الله:

قد تبدو الحرب – لأول وهلة – صراعاً دامياً ممتداً على رقعة معينة من الأرض، لكنها في الحقيقة تكتنف على أمور عديدة أبعد من ذلك بكثير، تبدأ بكيفية التعامل مع أبناء الأمة من المقاتلين، ثم العقيدة العسكرية التي تستند إليها الأمة، ثم كيفية التعامل مع العدو في الميدان، وأخيراً كيفية التعامل مع نتائج الحرب. وكل هذه الجوانب كانت ماثلة في ذهن عمر ﷺ وتفكيره ووجدانه، و لم تغب عنه للأهمية الفائقة لكل منها.

فقد كان همّ المسلمين على عمر ﷺ ثقيلاً، وطأته ثقيلة، فحياهم وأرواحهم أمانة لا بد من أن يُحسن في أدائها، لذلك نجده لم يكن راغباً في التوسع في جبهات القتال بطريقة جامحة، بل أراد أن يكون ذلك متوازناً ومتسلسلاً وبما يتفق مع قدرات المسلمين البشرية المحدودة، حتى لا يتحول الجهاد إلى عملية انتحارية جماعية، فمما قاله ويدل على هذه المعاني: «لوددت أن بين السواد والجبل – يريد بلاد إيران – سداً، لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد، إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال»[1].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٨/٤.

وكان يطلب من قادة الجند دوام مكاتبته بأخبارهم في كل يوم[1]، يوافوه أولاً بأول بأخبارهم، كما أن ذلك يعينه على اتخاذ القرارات والإجراءات اللازمة[2]، وكان من دأبه إذا أبطأت عليه الأخبار أن يقنت[3]، يدعو لإخوانه المجاهدين دعاءً جهرياً سائلاً مولاه النصر والسلامة لهم. وكان يخرج إلى أطراف المدينة ينتظر الركبان عسى أن يأتوه بالأخبار؛ لا يأبه إلى كونه خليفة ملتزماً بـ(مراسيم) تحفظ له (وقار) السلطة.

فقد خرج مرة كدأبه هذا، فإذا بالبشير قادم يحمل أخبار نصر المسلمين في القادسية، وكان عمر ﷺ واقف ينتظر، فلما رآه تعلق به يستنشده الأخبار، والبشير على ناقته وعمر ﷺ يهرول خلفه، لا يعرف أن هذا هو (أمير المؤمنين)[4]، وقد يبدو المشهد ساذجاً وفطرياً وبدائياً، كان بوسع عمر ﷺ أن يأمره بالوقوف ليكلمه بوصفه أميراً للمؤمنين، لكن عمر ﷺ المشحون بالعاطفة تجاه إخوانه من المجاهدين لم يكن ليتذكر أصول (البروتوكولات) و(المراسيم)، كان يبحث عن جملة أو كلمة تشفي عطشه المتطلع إلى أحوال إخوانه وهم يخوضون غمار حرب لا هوادة فيها.

ولقد كان حريصاً على أن يحفظ حياة كل مسلم، بأن تكون الانتصارات بأقل ما يمكن من تضحيات، فعن أنس أن عمر ﷺ سأله: كيف تصنعون

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٩٥/٣.
(٢) انظر مثلاً: الواقدي، فتوح الشام، ٢٥١/١.
(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٥٢/٢٣.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥٨٣/٣.

إذا حاصرتم حصون العدو؟ قال: نحاصرهم ثم نبعث رجالاً يحفرون في أساس السور، فقال: أرأيت إن رُمي رجل بحجر فأصابه أيقتله؟ قال: نعم، فقال عمر ﷺ: ما أحب أن تفتحوا حصناً فيه أربعون رجلاً بدم رجل من المسلمين يُقتل ضياعاً[1].

وجاء في هذا السياق أيضاً رفضه حمل المسلمين في البحر للقتال[2]، وكان يقول: «أحمل أمة على لوح فأغرقهم، لا والله، لا أفعل»[3]، فلما غزا عرفجة بن هرثمة الأسدي بالمسلمين في البحر، أنكر عليه عمر ﷺ وعنّفه[4]. ومثل ذلك ما مر بنا في قصة العلاء بن الحضرمي، إذ لم تكن للمسلمين خبرة بعد في ركوب البحر والقتال فيه. ويكفيهم ما يحيطهم من جبهات قتال برية، والوقت كان لا يزال باكراً لفتح جبهة البحر الواسعة على المسلمين.

وكان لعمر ﷺ قدرات عجيبة في اختيار قادة الحرب، فقادة الجند عنده أهم من كل الوظائف وأخطرها، لتعلقها بأرواح المسلمين ومصير دولتهم، لذلك كان يقول: «لأمير جيش من جيوش المسلمين أهم إليّ من أمير مصر من الأمصار؛ لأن صاحب المصر يريد الأمر فيراجعني، وصاحب الجيش لا يستطيع أن يراجعني»[5]. وهذه التفاتة عظيمة من عمر ﷺ، إذ ليس أمام القائد

---

(١) ابن جماعة، مستند الأجناد في آلات الجهاد، ص ٨٥-٨٦.
(٢) المتقي الهندي، كنز العمال، ٥٦/٤.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣١٦/١.
(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص٢٥٣.
(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣١٦/١٠.

العسكري متسع من الوقت للمداولة في كل الأحوال، إذ لا بد من قرارات سريعة في بعض الأحيان، وذلك ما يتطلب في القائد مواصفات دقيقة ومحكمة حتى لا تعرض مهمته إلى خطر.

لقد كان عمر ﷺ دقيقاً في سبر أغوار الرجال ومعرفة معادنهم، فثمة فروق دقيقة يصعب تمييزها أحياناً، لكنها قد تقود إلى أفدح النتائج، فقد ميز عمر ﷺ بين الشجاعة والجرأة والإقدام من ناحية والاندفاع والولع والرغبة الجامحة في القتال من ناحية أخرى؛ فالشجاعة والإقدام تعكس نزوعاً إنسانياً إيجابياً يخلو من التهور، يتحسب ولكن لا يتردد، يريد النصر ولكنه يريد حفظ أرواح المقاتلين أيضاً. أما الآخر فإنه شجاع مقدام، ولكنه لا يتحسب ولا يهمه حجم التضحيات التي يقدرها من أجل النصر، فتكون أرواح الجند عنده رخيصة، فذلك ما كان يرفضه عمر ﷺ بشدة.

فمن الذين استبعد تقليدهم إمرة الجيوش سليط بن قيس الأنصاري، بعثه عمر ﷺ مع أبي عبيدة ﷺ، وقال له بشأنه: «قد بعثت معك رجلاً هو أفضل منك إسلاماً فاقبل منه مشورته» ثم قال لسليط نفسه: «لولا أنك رجل عجل في الحرب لوليتك هذا الجيش، والحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث»[1]. كما كتب إلى قادة الجند أن لا يستعملوا البراء بن مالك في مواقع القيادة لأنه «مهلكة من المهالك، يَقدم بهم»[2]، فكان مقداماً في الحرب، تحكمه الرغبة الشديدة في تحقيق النصر بغض النظر عن الثمن.

---

(١) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٣.

(٢) ابن أعثم، الفتوح، ١/١٦٤.

ومن ناحية أخرى، فإن عمر ﷺ لم يوّلِ أحداً من أهـل الـردة قيـادة المسلمين، إلا بعد أن ضرب الإسلام جرانه، وظهر أمره في الآفاق، بل جعلهم (حشوة) في الجيش، حتى كبراءهم وزعماءهم، على الرغم مـن مكانتـهم في أقوامهم[1]، خوفاً من أن يتمكن التردد والضعف مـن هـؤلاء في الـساعات الحرجة فينقلب الأمر وبالاً على المسلمين.

وجه آخر لفاعلية عمر ﷺ في التعاطي مع المسائل الشرعية، فقـد حـرم الإسلام التولي يوم الزحـف: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الأنفال:١٦)، فكان التولي يوم الزحف كبيرة من الكبائر، وإذا كـان هـذا الحكم عاماً، فإن التفـاصيل لها حيثياتـها، لذا قال العلماء: إذا كـان عـدد الكفار أكثر من ضعف عدد المسلمين جاز الفرار منهـم، وإن لم يكن كذلك لم يجز الفرار[2]؛ وقد أراد عمر ﷺ أن يكون عملياً بشكل ملموس، لذا كـان يقول للجيوش إذا بعثهم: «**أنا فئتكم**»[3]، وكان يردد على مسامع المـسلمين: «**أنا فئة كل مسلم**»[4].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٥/٤.

(٢) ابن النحاس، مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، ص٣٧٣ ؛ القرطبـي، الجـامع لأحكام القرآن، ٣٨٢/٧.

(٣) المتقي الهندي، كنز العمال، ٢٧٦/٥.

(٤) المتقي الهندي، كنز العمال، ١٦٠/١.

ومن موقف عمر ﷺ هذا نستشف أن تفسير الآية المتقدمة يعني أن الهارب من القتال لأول بادرة خوف هو المستحق لما فيها من تهديد ووعيد، غير أن الذي يثبت في القتال ويعم حتى يتبين له أن ثمة خسارة تلوح في الأفق، وأن الاستمرار في القتال قد يقود إلى إبادة بقية المقاتلين، هنا يكون الانسحاب المنظم من القتال، إنما هو حفظ للمقاتلين من أن يبادوا من غير طائل، وبالتالي فإن تقليل الخسائر يُعد من هذا الوجه أحد أشكال الظفر، وعمر ﷺ بقوله هذا يوصل رسالة إلى المقاتلين مفادها أن يفهموا قول الله تعالى المتقدم على الوجه الصحيح، يكون بالشكل الذي ذكرناه، وصنيع عمر ﷺ هذا إنما جاء تأسياً بالنبي ﷺ، إذ خاطب النبي المسلمين في بعض غزواتهم بقوله: «**أنا فئة كل مسلم**»[1].

ثانياً: مبادئ القتال عند عمر ﷺ:

كانت الوصايا للقادة عند توجههم للقتال من الأعراف الإسلامية المهمة، سار عليها النبي ﷺ ومن بعده بقية الخلفاء، ولم تكن هذه الوصايا كلمات منمقة وحسب، بل إنما مثلت في الحقيقة بياناً شافياً تضمن استراتيجيات العمل العسكري وأخلاقياته والأسس الواجب مراعاتها بما يوفر عقيدة عسكرية تشكل أرضية مهمة لعمل الجيش في الإسلام، وكان لعمر ﷺ نصيب وافر بين هذه الوصايا، شفهية ومكتوبة، وهي على العموم دارت حول محورين؛ مبادئ القتال الأخلاقية، ومبادئ القتال الفنية والمهنية.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٣٨٣/٧.

وفي إطار المحور الأول جاءت وصايا كثيرة سنشير إلى نماذج منها، فثمة رسالة وجهها إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ، وهي على درجة عالية من الأهمية، جاء فيها: «أما بعد، فإني آمرك ومَن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة للحرب، وآمرك ومَن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولو لا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنصر عليهم بفضلنا لن نغلبهم بقوتنا، واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يُسلَّط علينا وإن أسأنا، فرب قوم قد سُلط عليهم شر منهم كما سُلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم...»[1].

هنا نبه عمر ﷺ بعبارات موجزة بليغة على أن ميزان القوى التقليدية - في العدد والعدة - ليس هو العنصر الحاسم في ساحات الحرب، فإن مشيئة الله تعالى هي التي ترجح بها الموازين، ولكن متى تقضي مشيئة الله في النصر؟ فذلك يحتاج إلى معايير أساسية في مقدمتها طاعة الله تعالى وعدم الوقوع في

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١/٤٠.

شيء من معصيته، وتلك حقيقة أدركها العديد من سلف الأمة ونبهوا عليها في خطبهم أيضاً[1].

كان عمر ﷺ ينبه على الدوام على مثل هذه الجوانب، فكان مما كتب به أيضاً: «... واعلم أن لكل عادة عتاداً، فعتاد الخير الصبر، فاصبر على ما أصابك أو أنابك يجتمع لك خشية الله، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته واجتناب معصيته، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة»[2].

وكتب إلى الجند أن يكثروا من قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[3] تعلقاً باليقين الإلهي، فإن الله تعالى مرجع كل أمر، فلا يتم أمر إلا بإذنه وبحوله وقوته، وهذا من باب الأخذ بالأسباب القلبية التي هي الأصل. وكان مما أكده في رسائله إلى قادته: «... فَسِر على بركة الله، واتق الله ما استطعت، واحكم بالعدل، وصلِّ الصلاة لوقتها، وأكثر ذكر الله»[4]؛ وكتب أيضاً: «تفقهوا في الدين، فإنه لا يُعذر أحد باتباع باطل وهو يرى أنه حق، ولا بترك حق وهو يرى أنه باطل»[5]، إذ يرى عمر ﷺ عمق الصلة الوثيقة بين الدين والجهاد - الحرب - فلا بد للجهاد من وسائله النبيلة التي

(١) انظر مثلا: ابن أعثم، الفتوح، ١/١٩٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/٦٤.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/٤٨٣-٤٨٤.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/٣٦.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/٥٩١.
(٥) الكاندهلوي، حياة الصحابة، ١/٣٤٦.

تخلو من كل إثم ومعصية، ثم إن الحرب ليست ظرفاً استثنائياً يسهم بالتحلل من الالتزامات الدينية، فمثل هذا التحلل يؤشر بدء الانحدار نحو هاوية الهزيمة.

أما في محور مبادئ القتال الفنية والمهنية، فقد كان عمر ﷺ يوصي قادته أو يكتب إليهم بتعليمات تحقق أفضل أداء للقتال، فكان مما كتبه إلى سعد ﷺ أيضاً: «... وترفق بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع. وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم... وإذا وطئت أرض العدو فاذك العيون بينك وبينهم، ولا يخفَ عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى صدقه ونصحه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه، والغاش عين عليك لا عين لك، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك... واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد، ولا تخص بها أحداً بهوى... وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها، فتصنع بعدوك كصنعه بك...»[1]. وتتضمن هذه الرسالة بنوداً كثيرة تشير إلى إدراك عمر ﷺ للكثير من جوانب الحرب المادية والمعنوية والفنية.

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١/٤٠.

ومما كتبه إلى أبي موسى الأشعري ﷺ: «... لا تكثر عليهم الحرب في كل وقت فيملوها إلا أن يطلبوا ذلك منك، وألن لهم جانبك، وحِطهم بنفسك، واعلم أن المسلمين في جوار الله عز وجل، وأن المسلم أعظم الخلق على الله حرمة، فلا يطلبنك الله بمظلمة أحد منهم، واحذر عليهم، واحفظ قاصيهم، وانصف مظلومهم، وخذ من قويهم لضعيفهم، وأصلح ذات بينهم، وألزمهم القرآن، وخوفهم – أي من الله تعالى – وامنعهم من ذكر الجاهلية وما كان فيها، فإنه يورث الضغينة ويدعو إلى الدخول والقطيعة»[1]، وهكذا نجد عمر ﷺ يوازن بين سلامة المقاتلين وحسن معاملتهم من جهة والحاجة إلى النصر من جهة أخرى؛ بل لابد للأمر الثاني من الأمر الأول، وإلا فإن الهزيمة بالمرصاد.

وثمة رسائل ووصايا أخرى كثيرة تشير إلى أن عمر ﷺ لم يغفل عن جانب من جوانب القتال التي تحقق التفوق المعنوي للمسلمين، الذي كان عند عمر ﷺ العنصر الحاسم لتحقيق أي تفوق في ميدان القتال. وكل ذلك يؤكد أن النصر مرتبط أيضاً بأخلاقية التعامل مع المقاتلين، إذ ليس هؤلاء كتلة بشرية وضعت في حساب الخسائر، فالنصر الحقيقي يتمثل في حفظ حياة المقاتلين عن طريق خفض منسوب الخسائر ما أمكن إلى ذلك من سبيل.

ومن الأمور المهمة الأخرى التي انتبه عليها عمر ﷺ ما يتعلق بالجوانب الاجتماعية، ولا سيما الأسرية في حياة المقاتلين، فقد سمع امرأة تقول:

---

(١) ابن أعثم، الفتوح، ٢/٤.

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَاخْضَلَّ جَانِبُهْ وَأَرَّقَنِي إِذْ لا خَلِيلَ أُلاعِبُهْ
فَلَوْلا حَذَارِ اللَّهِ لا شَيْءَ مِثْلُهْ لَزُعْزِعَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ

فعلم عمر ﷺ منها أن زوجها قد غاب طويلاً في جبهات القتال، وأدرك أن في الأمر ثمة مشكل، فبعد أن تحراه سعى إلى معالجته، وذلك بعدم إطالة مكث المقاتلين في جبهات القتال، فكان يراوح بينهم[1]، وذلك من أجل إدامة حسن التواصل بين أفراد الأسرة، وإلا فإن الأمر قد يقود إلى ما لا ينبغي الوقوع فيه أخلاقياً. كما بلغه أن رجلين التحقا بالقتال، وأن أباهما شيخ كبير لا معين له، فردهما عمر ﷺ، وقال: لا تفارقاه حتى يموت[2]. وبلغه أن المقاتلين في العراق قد تغيرت أحوالهم، ولاسيما من الناحية الصحية، فاستفسر عن ذلك، وعرف أن السبب يكمن في البيئة التي أقاموا فيها، فأمر بإنزالهم في مكان يشبه بيئتهم، فوقع الاختيار على الكوفة[3].

فكل جزئية بحاجة إلى مراجعة ومتابعة وتفحص بما يقود إلى تحقيق موازنات دقيقة في حياة الأمة والدولة وما ينبغي تحقيقه من أهداف على صعد عديدة، وإلا فإن الفشل في جانب من هذه الجوانب قد ينذر بفشل مشروع الأمة برمته، وهذه أحد الأوجه التي تجسد جسامة الأمانة التي حملها عمر ﷺ على عاتقه.

---

(١) عبد الرزاق، المصنف، ٧/١٥١؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/٢٢١.
(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، ١٨/١٣٦.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/٤٠-٤١.

ثالثاً: أخلاقيات التعامل مع العدو في الميدان:

ولقد عبرت أخلاقيات المسلمين في التعامل مع عدوهم في الميدان على عمق الروح الإنسانية التي امتلكوها، بما يؤكد أن حروبهم وجهادهم لم تكن أهدافها التدمير والإبادة، بل من شأنها الهداية وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. فكان أول ما ميز حروبهم أنها تبدأ بدعوة الخصم إلى الإسلام، فإن قبلوا هذه الدعوة فإن ذلك يعني أن يحل السلام بين الطرفين بدلاً من الحرب، لذلك كان عمر ﷺ يكتب إلى قادته بهذا الشأن، فكتب إلى سعد ﷺ: «إني قد كنت كتبت إليك أن تدعو الناس إلى الإسلام ثلاثة أيام، فمن استجاب لك قبل القتال، فهو رجل من المسلمين، له ما للمسلمين، وله سهم في الإسلام...»[1]؛ وكتب إلى سلمة بن قيس الأشجعي: «سر باسم الله، قاتل في سبيل الله من كفر بالله، فإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال؛ ادعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة، وليس لهم في فيء المسلمين نصيب، وإن اختاروا أن يكونوا معكم – أي في القتال – فلهم مثل الذي لكم...»[2].

ففي هذه الرسائل نرى مضامين تؤكد الجوانب الأخلاقية والعملية – في آن واحد – في سياسة عمر ﷺ، وهي منبثقة من معطيات الشريعة الإسلامية، فليس القتال من أجل فيء أو غنيمة في جوهره، بل هو قتال في سبيل الله ومن

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال، ٤/٢٠٥-٢٠٦.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/١٨٦-١٨٧.

أجل دعوته، فإذا أخذ هذا الأمر مداه، انقلبت المعادلة والمعايير، فيغدو الـذين كانوا بالأمس عدواً إذا هم إخوة في الدين إذا قبلوا الدخول تحت قبة الإسلام، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من الحقوق والواجبات.

ومن أبرز الأمور التي حرمـها الإسلام الغدر بالعدو والتمثيل بقـتلاهم، فقد كتب إلى قادته: «... ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين... ولا تمثلـوا عنـد القـدرة، ولا تسـرفوا عند الظهـور... ولا تقتـلوا امرأة ولا هرماً ولا وليداً...»[1]. ومن الأمور الملفتة للنظر هنا هو عدم الإسراف والإيغال في القتل في ميدان القتال، فإذا ما لاحت هزيمة العدو وتأكـدت فينبغـي رفـع السيف، ويدخل في ذلك عدم التمثيل بالقتلى بأي شـكل مـن الأشـكال، فللميت حرمة لا بد من مراعاتها، فهذا الميت لم يعـد له ضرر أو ما يتخـوف منه، وبالتالي ليس هناك ما يسوغ التمثيل به. ويدخل في هذا السياق أيضاً عدم قتل النساء والأطفال والشيوخ. كما أكد عمر ﷺ عدم قتل (الرجـال) مـن المدنيين الذي لا طول لهم في الحرب «... واتقوا الله في الفلاحين» و«...الذين لا ينصبون لكم الحرب»[2] فإن هؤلاء لا يملكون سبباً، ولا أتوا مأثماً يدعو إلى قتلهم، فإن قُتلوا فإن ذلك يقع في باب (العدوان) الذي نهى عنه الإسلام كثيراً.

كما أن عمر ﷺ نهى عن قتل من طلب الأمان أو مَنْ منحه المـسلمون الأمان؛ وهدد عمر ﷺ بشدة مَنْ يقترف مثل هذا الأمر، فقد كتب إلى قادته:

---

(١) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص٦٤.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢/٣٤٩.

«والذي نفسي بيده لو أن أحدكم أشار إلى السماء بإصبعه إلى مشرك، ثم نزل إليه على ذلك ثم قتله، لقتلته به»[1]؛ لأن ذلك إن وقع فهو من قبيل الغدر المنهي عنه شرعاً. ثم كتب عمر ﷺ مراراً يبين لهم الأشكال والصيغ التي يمكن لأحد أفراد العدو طلب الأمان بها والاستسلام، حتى لا يخطئوا في التعامل معه، فأية إشارة أو كلمة يفهم منها العدو أنها دعوة للأمان فهي أمانه «... فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان، أو قرفه بإشارة أو بلسان، فكان لا يدري الأعجمي ما كلمه به، وكان عندهم أماناً، فأجروا له ذلك مجرى الأمان»[2]. ولا يشك أحد في أن ذلك يحمل أسمى المعاني والدلالات، فإن المقاتل المسلم لا يحمل معه الروح العدوانية، بل إنه لا يحمل سيفه وسلاحه فقط، بل يحمل في صدره الرحمة ودعوة النبي ﷺ التي هدتهم إلى الإسلام، وينتظر منهم غيرهم أن يدعوهم إلى الدعوة التي دعاهم إليها النبي ﷺ.

رابعاً: التعامل مع معطيات ما بعد الحرب:

تنتهي المعارك في الميدان، إلا أن متعلقاتها تستمر في التفاعل في أكثر من اتجاه؛ الأسرى والغنائم ثم الجماعات التي تخضع لنفوذ الجماعات المتحاربة. كل ذلك بحاجة إلى التعامل معه وفي الإطار الأخلاقي الذي حكم الحرب في الميدان. إذ أن البناء الأخلاقي لأي جماعة يكون في العادة نسيج متجانس، يعكس الثوابت العامة للجماعة. وهكذا كان تعامل المسلمين مع متعلقات الحرب، وكما جسدها عمر ﷺ في سياساته.

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال، ٢٠٩/٤؛ الإمام مالك، الموطأ، ٣٥٨/١.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤٩٢/٣.

فإن أبرز الإشارات التي جاءت من زمن عمر ﷺ بشأن الأسرى والسبي تمثلت بمراعاة الاعتبارات الإنسانية، وبما يعكس الرحمة التي جاء بها الإسلام، إذ أمر بعدم التفريق بين الأم وأطفالها[1]. أما موضوع الغنائم، فقد تقدم الحديث بشأن العفة والأمانة التي ميزت تعامل عمر ﷺ مع المال العام ومنها الغنائم والفيء، وما نود أن نشير إليه هنا هو انعكاس هذه السياسة على سلوك المقاتلين أنفسهم إزاء الغنائم التي احتشدت أمامهم أكواماً كأنها التلال، من ذهب وفضة وجواهر وحرير وكل شيء ثمين.

فقد حرص عمر ﷺ على تنبيه المقاتلين من الغلو في الغنائم[2]، وكان يسأل المقاتلين إذا وفدوا عليه: هل ثبت لكم العدو؟ فإن قالوا: نعم، قال: قد غللتم إذن[3]، وحتى لا يقع شيء من ذلك كان يؤكد دائماً ضرورة العدل في قسمة الغنائم، فكتب إلى أبي عبيدة ﷺ: «فاقسم الغنيمة بين المسلمين، وفضّل أهل السيف، واعط كل ذي حق حقه...»[4]، فأصبحت العفة من أبرز سمات المقاتلين المسلمين، فقد قال جابر بن عبد الله بشأن المقاتلين الذين خاضوا غمار معركة القادسية: «وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ، مَا أُطْلِعْنَا عَلَى أحد مِنْ أَهْلِ الْقَادِسِيَّةِ أَنَّهُ يُرِيدُ الدُّنْيَا مَعَ الآخِرَةِ، وَلَقَدِ اتَّهَمْنَا ثَلاثَةَ نَفَرٍ، فَمَا رَأَيْنَا كَمَا هَجَمْنَا عَلَيْهِ مِنْ أَمَانَتِهِمْ وَزُهْدِهِمْ: طُلَيْحَةَ بْنَ خُوَيْلِدٍ، وَعَمْرَو بْنَ مَعْدِي كَرِبَ،

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٦٣.
(٢) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص٦٤.
(٣) ابن النحاس، مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، ص٢٨٨.
(٤) الواقدي، فتوح الشام، ٢١٨/١.

وَقَيْسَ بْنَ الْمَكْشُوح»[1]، فكان المقاتلون بذلك على أعلى درجـــات الأمانة، و لم يكن فيهم أحد قد انحدر مستواه عن هذه القمة في الأمانة.

وبعد فتـــح مدينة توج من بلاد إيران تحدث أحد المقاتلين عـــن نفـــسه فقـــال: كان عليّ قميص قـــد تمزق، فأخذت إبرة وسلكاً أخـــيط القمـــيص بهما، ثم إني نظرت إلى رجل من القتلى عليه قميص فنزعته، فأتيت بـــه المـــاء فغسلته، فلما جُمعت الغنائم، قال قائد الجند: أيها الناس! لا تغلوا، فإنه مَن غل جاء بما غل يوم القيامة، ردوا ولو المخيط، فلما سمعت ذلك نزعت القمـــيص فألقيته في الأخماس[2]، مع أن هذا القميص كان سيبقى على صاحبه المقتـــول ويدفن معه، غير أن هذا المقاتل لم يرد التدنس بشيء حتى وإن كان شبهة.

ومشهد آخر من مشاهد العفة، فقد حمل جندي مسلم على جنديين مـــن الفرس فقتلهما وأخذ بغلين معهما يحملان أحمالاً، فلم يفكر حتى أن ينظـــر إلى ما فيهما، فجاء بهما إلى صاحب الغنائم، الذي قال للجندي: على رسلك حتى تنظر معنا ما فيهما، فإذا سفطان فيهما تاج كسرى مقسماً، وعلـــى الآخـــر سفطان فيهما ثياب كسرى وفيهما من الديباج والذهب الشيء الكثير[3]، فلم يندم القاتل أن جاء بهذه الأحمال من غير أن تمتد يداه إلى شيء منها، لقد كانوا – حقيقة – في شغل عن ذلك، لقد كانوا يجاهدون في سبيل الله.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٩/٤-٢٠.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٧٥/٤.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٨/٤.

وهذه نماذج لأمثلة كثيرة تؤكد سلوك المسلمين هذا مع الغنائم، وكان سارية بن زُنيم – أحد قادة الجند – قد فتح الله على يديه فسا ودار ابجرد، فأحب أن يهدي عمر ﷺ سفطاً فيه جواهر، بعد أن استوهبه من الجند، فوهبوه له ووافقوه رأيه، فبعث به برفقة رجل مع البشرى بالنصر، فلما بلغ عمر ﷺ وأخبره الخبر عن السفط، صاح عمر ﷺ: لا، ولا كرامة، حتى تقدم على أولئك الجند فتقسمه بينهم[1].

فلما عفّ عمر ﷺ عفّ الجند أيضاً، ولو رتع لرتعوا.

هكذا تكون تربية الأمم، وهكذا يكون إعدادها لرسالتها ونهضتها الحقيقية.

ومن المعطيات المهمة لمعارك المسلمين مع أعدائهم أن أصبحت تحت نفوذهم وسيادتهم أمماً وشعوباً كثيرة من يهود ونصارى ومجوس وغير ذلك، فكيف نظر إليهم المسلمون؟ لقد عدّهم المسلمون أهل ذمة، بمعنى أنهم في ذمة الله ورسوله، لا يحل لأحد العدوان عليهم، ولا إيذاؤهم بشكل من الأشكال في دينهم وأموالهم وأعراضهم، إلا ما كان بحقه. وكان عمر ﷺ يرعى ذلك حق رعايته، حتى إنه كان من آخر ما أوصى به قبل وفاته قوله: «وأوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم»[2].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/١٧٨-١٧٩.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/١٩٢.

وأول الأمـور التي كانت محط احترام المسلمين في تعاملهم مع أهل الذمة احترام دينهم، ولا سيما أن الإسلام قد نص على أنـه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (البقرة:٢٥٦)، لذا فإن الدولة الإسلامية ضامنة لحقوق هؤلاء الدينية وحمايتها، وهكذا كان عهد عمر ﷺ لنصارى بيت المقدس: «هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمـان: أعطـاهم أمانـاً لأنفـسهم وأمـوالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تُسكن كنائـسهم - أي من المسلمين - ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزهـا، ولا مـن صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحـد منهم...»[1]. وهذا نص صريح التزم بحفظ الحقوق الدينية والمدنية لهؤلاء مـن دون أي تدخل فيها بأي شكل من الأشكال.

وعلى المستوى الفردي، فقد كان عمر ﷺ حريصاً على دعوة أهل الذمة إلى الإسلام، لكنه لم يكرههم على ذلك، فقد كان له غلام يدعى آسق، دعاه إلى الإسلام، فلم يجب، فاعتقه وقال له: اذهب حيث شئت[2].

وكتب إلى بعض قادته يبين له كيفية مسيره بجنده، ومما جـاء في ذلـك: «... ونحِّ منازلهم - أي الجند - عن قوى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يُرزأ أحد من أهـلها شيئاً، فإن لهـم حرمـة وذمة ابتليتم بـها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صـبروا لكم فتولوهم خـيراً،

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/٦٠٩.

(٢) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص٩٣.

ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح»[1]، وهي رسالة أكثر من بليغة وصريحة أكدت حقوق أهل الذمة والسير فيهم بالعدل ونفي الظلم عنهم. فهم الآن رعية من رعايا الدولة ومواطنون فيها لهم من الحقوق والواجبات ما يجب احترامه والالتزام به. وهو ما يعكس الرؤية الحضارية العميقة لدين الإسلام التي سبقت كل الحضارات في صياغة حقوق الآخرين ورعايتها خير رعاية، انطلاقاً من اعتبارات أخلاقية وشرعية ترى في الإنسان - أياً كان - حرمة لابد من رعايتها، و لم يقتصر ذلك على الجانب النظري فحسب، بل صدقه الجانب العملي والميداني.

ولذلك فإن عمر ﷺ (تبرأ إلى أهل الذمة من معرة الجيش)[2]، فالجيش يضم أفراداً كثيرين، مستوياتهم وثقافاتهم وتدينهم أمور مختلفة، فقد يقع من بعضهم شيء من الأذى إزاء أهل الذمة، فإن عمر ﷺ يعلن براءته من ذلك، أي أنه لم يأمر بمثل ذلك.

ومن ناحية أخرى قدم على عمر ﷺ أحد القادة الجند، فأخبره أن ثمة مدينة بينهم وبين العدو تدعى عربسوس، يتعاون أهلها مع العدو ويزودونه بالمعلومات عن المسلمين. فقال له عمر ﷺ: إذا قدمت عليهم فخيرهم بين أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين، ومكان كل بقرة بقرتين، ومكان كل شيء شيئين، فإذا رضوا بذلك فوفِ لهم وأجلهم عن مدينتهم، فإذا رفضوا ذلك

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٤٠/١.
(٢) المتقي الهندي، كنز العمال، ٢١٠/٤.

فانبذ إليهم - أي حذرهم - واعطهم مهلة سنة، ثم خربها[1]. ولا ريب في أن ذلك يعكس درجة عالية من التسامح والتفهم والكرم في طريقة التعامل - في ظروف الحرب – مع مَنْ كان عوناً للعدو.

وفي جانب آخر فإن العدل الذي كان أساس سياسة عمر ﷺ لم يغب عن أهل الذمة، فالأساس الأخلاقي للعدل لا يسعه أن يستثني أحداً منه؛ فقد اختصم يهودي ومسلم إلى عمر ﷺ، فرأى عمر ﷺ أن الحق لليهودي، فقضى له[2].

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٨٥–١٨٦.

(٢) وكيع، أخبار القضاة، ٤٥/١.

الفهرس

وكـــلاء التــوزيـــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطــــر	دار الثقافـــــــة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٤٦٢٢١٨٢ ٤٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس: ٤٤٤٣٦٨٠٠ -بجوار سوق الجبر
البحـــرين	مكتبـــــــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨ (المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويـــت	مكتبة دار المنـــار الإســـلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبـــة علـــوم القـــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب: ٣٣٧١ – عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الـــيمن	مجموعـــة الجيـــل الجديـــد	٧١٣٦٣-٧٨٠٤٠ ٧٥٨١١ – ٢٧٠٣٨	ص.ب: ٥٤٤ – صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الســودان	دار الريـــان للثقافـــة والنـــشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦ – الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مـــصر	دار السلام للطباعـــة والنـــشر والتوزيـــــع والترجمـــــة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغـــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦ – الرباط
الجزائـــر	دار الوعي للنـــشر والتوزيـــع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة –الجزائر
إنكلتـــرا	دار الرعايـــة الإســـلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة – الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

موقعنا على الإنترنت:

www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠)	فلس
الإمارات	(٥)	دراهم
البحرين	(٥٠٠)	فلس
تونس	دينار	واحد
السعودية	(٥)	ريالات
السودان	(٥٠)	قرشاً
عمان	(٥٠٠)	بيسة
قطر	(٥)	ريالات
الكويت	(٥٠٠)	فلس
مصر	(٦)	جنيهات
المغرب	(١٠)	دراهم
الجزائر	(١٢٠)	ديناراً
اليمن	(٤٠)	ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

جائزة الشيخ

علي بن عبد الله آل ثاني

للعلوم الشرعية والفكر الإسلامي

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء، تطرح موضوعها لعام ٢٠١١م

« فقه التغيير وبناء الأمة الوسط »

آخر موعد لاستلام البحوث حزيران (يونيو) ٢٠١٣م

- **مدخل:**

مفهوم الأمة؛ مفهوم التغيير؛ تعريف الأمة الوسط؛ الوظيفة الحضارية للأمة الوسط؛ أبعاد الشهود الحضاري (الشهادة على الناس وهدايتهم إلى الخير)..

- **المحاور:**

- **عوامل تشكيل الأمم:** لمحة تاريخية؛ متطلبات بناء أمة الرسالة؛ التغيير بين الأمة والدولة؛ العقيدة والسياسة في حقبة العولمة.
- **سنة التغيير:** سنن المدافعة والصراع بين الخير والشر؛ التغيير بين ذهنية الاستحالة وذهنية السهولة؛ مشروعية التغيير؛ أسباب ودواعي التغيير؛ التغيير إنتاج نخبة وإنجاز أمة.
- **فقه تغيير المنكر:** وسائل التغيير؛ آداب وضوابط التغيير؛ أبعاد منهجية التغيير؛ منهج النبوة في التغيير.
- **إعادة البناء ومرتكزات النهوض:** مقومات البناء (الإمكان الحضاري)؛ حركات التغيير والإصلاح وعبرتها؛ توفير شروط وظروف الميلاد الأول (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها)؛ عقبات وتحديات على طريق التغيير؛ استراتيجية وشروط النهوض.
- **رؤية مستقبلية لمعاودة بناء الأمة الوسط.**

قيمة الجائزة (١٧٥) ألف ريال قطري

• شروط الجائزة:

١- أن يكون البحث قد أُعدّ خصيصًا للجائزة.

٢- أن تتوفر في البحث شروط البحث العلمي.

٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ مطبوعة، ومخزنة على قرص (CD) مرفق بالبحث، إضافة إلى ملخص باللغة الإنجليزية، إن أمكن.

٥- لا يقل حجم البحث عن (٢٠٠) صفحة، ولا يزيد على (٣٠٠) حوالي: (٦٠,٠٠٠) كلمة بخط (Traditional Arabic) بحجم (16).

٦- تحجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث للمستوى المطلوب.

٧- يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٨ - تسحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث مخالف لبعض شروط الجائزة.

٩- لا تُمنح الجائزة للفائز مرة أُخرى إلا بعد مرور خمس سنوات.

١٠- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين.

١١- على الباحث أن يرفق نبذة عن سيرته العلمية، ونسخة مصورة عن جواز سفره.

*** ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:**

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

لمزيد من الاستفسار:

هاتف: ٠٠٤٤٤٤٧٣٠٠(٩٧٤+)- فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

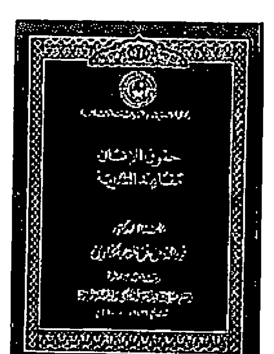
البريد الإلكتروني: m_dirasat@islam.gov.qa

موقعنا على الإنترنت: www.Islam.gov.qa

حقوق الإنسان
مَقاصِد الشَّريعَة

الأستاذ الدكتور نور الدّين بن مختار الخادمي

صدر عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية





- **أهم المرتكزات:**
- مصطلحات ومفاهيم...
- منشأ حقوق الإنسان: بين مقاصد الشريعة، وحقوق الإنسان...أزمة حقوق الإنسان...
- أهمية الأمن في بناء الحقوق؛ حق المواطنة؛ التميز العنصري؛ دور مؤسسات المجتمع المدني... العولمة وتنميط الإنسان؛ المعرفة بين الارتقاء بأدوات الإنسان والارتقاء بخصائصه؛ بناء إنسان الواجب؛ ضمانات حقوق الإنسان ومؤيداتها...
- رؤية مستقبلية.

الكتاب هو : البحث الفائز بجائزة

الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية العالمية

لعام ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م